أشواق داغِسْتان

د . محمد حبش

مركز الدراسات
لبحوث التنوير والحضارة
الفرعية

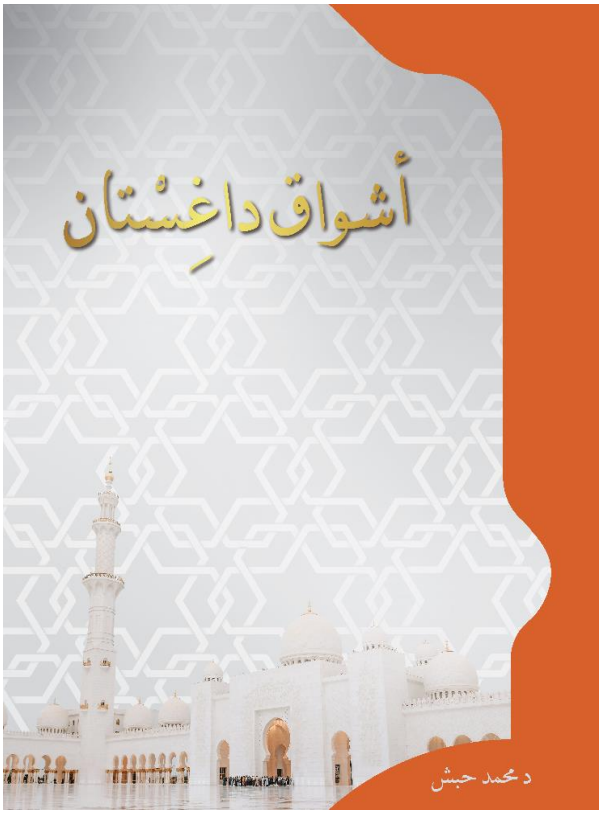

أشواق داغستان

د.محمد حبش

أشواق داغستان

الطبعة الرابعة ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة

المؤلف: د. محمد حبش

هذه الطبعة من إصدار مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة

دار متخصصة بالدراسات الإنسانية وإخاء الأديان

١٩- مدينة الشارقة للنشر- شارع الشيخ محمد بن زايد - الشارقة - الإمارات

هاتف: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

Edition 4 - 2023

All Rights Reserved

Mohamad Habash

This edition is issued by the Studies Center for Civilization and Enlightenment Research.

The center specializes in human studies and brotherhood of religions

Address 19- Sharjah Publishing City - Sheikh Mohammed Bin Zayed Rd - Sharjah - UAE

Tel: 00971551512545

habash2005@gmail.com

www.mohammadhabash.org

مدخل

بدأ فن المديح النبوي متأخراً نسبياً، ولم يُسجَل للشعراء في العصر الإسلامي والأموي وكذلك في أول العصر العباسي قصائد في المديح النبوي، باستثناء ما كان يلقيه شعراء الدعوة الإسلامية بين يدي النبي ﷺ من قصائد.

وشعراء الدعوة الإسلامية كحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك لم يتعاملوا في مسألة المديح النبوي على أساس أنه فنٌّ مستقلٌ بقدر ما كان ذلك غرضاً من أغراض القصيدة الذي يدرجه النقَّاد عادةً في باب المديح والفخر وشعر الملاحم.

ولم يكن إعراض الأولين عن الاشتغال بفن المديح النبوي بسبب سوء رأيهم فيه؛ بل كان بسبب تهيبهم لمقام النبي، وإشفاقهم من المثول في حضرته الشريفة، سيَّما إذا لحظنا ما كان يصاحب فن المديح آنئذٍ من تكسُّب الشعراء وابتذالهم، وامتداحٍ للفسقة والظلمة.

ولهذه الغاية كان أبو نواس يعتذر لأصحابه إذا سألوه أن يكتب في المديح النبوي، ويقول: والله ما بلغ شاعرُ الكسبِ والخمرة والنساء أن يتطاول إلى مقام النبي ﷺ، فكان يرى مقام النبي أبعد من أن يرقى نحوه، وأمنع من أن يتسامى إليه.

ولكنَّ فن المديح النبوي نهض على قدميه وتبوأ محلَّه في الأدب العربي في مطلع القرن السابع الهجري، وكان عميد هذه النهضة بلا ريب شاعر المديح النبوي شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري الصنهاجي، المتوفى عام 694هـ، وقد أوتي البوصيري لغةً جزلةً قوية، ورزق

الوقوف على أدقِّ المعاني وألطفها بألفاظ متخيرة موفقة، وليس يعرف في الأدب العربي رجل أوتي القدرة على نظم الشعر في المحاورة والجدل والإفحام في أعقد المسائل النظرية كالبوصيري، وبوسعك أن تقرأ بهذا المعنى لاميَّته التي مطلعها:

جاء المسيحُ من الإلهِ رَسُولا فأبى أقلُّ العالمين عُقُولا

وقصيدته (الهمزية) التي مطلعها:

كيف ترقى رقيَّك الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء

وقد راجت القصيدتان رواجاً عظيماً حتَّى صارتا كالأم التي أثمرت هذا الفن الأدبي الغزير.

وكثرت التشطيرات والتخميسات والتربيعات والمعارضات[1] لقصيدة البردة، حتى قال أحمد شوقي في نهج البردة التي عارض[2] فيها بردة البوصيري:

المادحونَ وأربابُ الهوى تبعٌ لصاحب البردة العصماء في القدمِ
أستغفر اللهَ إني لا أعارضهُ مَن ذا يعارضُ صوبَ العارضِ العَرِمِ
وإنما أنا بعضُ الغابطينَ ومَن يغبطْ وليَّكَ لا يُذْمَم ولا يُلَمِ
مدحتُه بمديحٍ أستقيلُ به وصادق الحبِّ يهدي صادقَ الكَلِم

ولا شكَّ في أن الحاجة تتعاظم اليوم للعناية بهذه القصائد الأصيلة في المديح النبوي، لاسيَّما بعد أن أصبح فن المديح مادةً أساسية في مجالس الأفراح والأسمار، وهي ظاهرة عافية بلا ريب خاصة إذا تمكَّنَّا من توجيه القصيدة واللحن والأداء بما ينهض بحال الأمة، ويزيدها

[1] المعارضات: هي أن يعمد الشاعر إلى قصيدة شاعر سابق فيقلدها نظماً وقافية ومعاني، وذلك إما بقصد توكيد معانيه وبسطها، وإما بقصد الرد عليها، وقد شاع هذا اللون من الأدب وأغلب إطلاقه على المعنى الأول.

[2] ننوه أننا نقصد بالمعارضة هنا أن ينهج الشاعر على منوال شاعر سابق بقصد تأييده وتكميل معناه.

ارتباطاً بسيرة نبيها العظيم ﷺ وأصحابه الكرام الذين صنعوا المجد الإسلامي العظيم، فالتغني حاجةٌ فطريَّة، يحسها الإنسان في جوانح ذاته، ولكنها أداة في يد الحادي، فإما أن يتخذ منها معراجاً يرقي فيه بنفوس سامعيه، وإما إن يجعلها مزمار غيٍّ يفسد فيها نصح مستنصحيه.

وكان للنبي ﷺ حاديان: الأول: أنجشه، وكان يأمره أن يحدو في السفر بقصائد الحكمة، ويأذن له بأداء لواعج الأشـــواق، ويقول : «يا أنجش، رفقاً بالقوارير»، والثاني: هو البراء بن مالك رضـي الله عنه، وإنه لأمر جميل أن يدمدم الفتى المسلم بقصائد تزيده ارتباطاً بإسلامه وتشدُّه إلى السلف الصالح، وتنهض بلغته وبيانه.

لقد انحطَّ مستوى الإنشاد الديني، وأصبح كثيرٌ من المنشدين لا يفرقون بين الغثِّ والسمين، ودخلت ألفاظ عامية ولهجات محلية في قصائد المديح لتحل عمداً أو سهواً مكان الفصيح القوي الجزل، وأصبح كثير من الإنشاد ما هو إلا لقلقةٌ بكلمات خالية من المعاني، عطل عن الدلالات، واستهلك اللحن أيضاً، فصار اللحن المبتذل الخفيف أكثر شيوعاً من اللحن الأصيل القوي، وفي ذلك فساد الأذواق، وخمود الأشواق.

وهكذا فإن الحاجة تتعاظم إلى الكشف عن روائع الأدب العربي التي لن تستطيع الأيام أن تقلل من نضارته أو تخفف من إشراقته، وهو كثير في بطون كتب التراث، وفي أعمالٍ جليلةٍ لاتزال مغمورةً تحتاج إلى من يكشف عنها ويدلل عليها.

هذه المخطوطة

في الشهر الماضي أسعدني طالبٌ داغستاني يدرس في كلية الدعوة الإسلامية بدمشق بإهدائي نسخة مخطوطة من قصيدة نظمها شاعر داغستاني على نهج البردة العصماء، ورجاني أن أقرأها وأتأملها.

والحقُّ أنني لم أجد سبيلاً إلى إخفاء عجبي من هذا النظم الفريد، الذي لا نبالغ إن وصفناه بإعجاز المديح النبوي، فمع أن القصيدة من نظم شاعر داغستاني، عاش في داغستان في أواخر عهد القياصرة، وكانت اللغة الداغستانية هي حديثه وخطابه وكتابه، غير أنه نَظَمَ قصيدته هذه بالعربية، فكان مجلياً في حلبتها، ولو أنني كتمت اسم الشاعر عنك، وقرأت عليك طرفاً منها لحسبتها من شعر النابغة الذبياني أو امرئ القيس، أو نظيرهم من فحول شعراء الجاهلية، وذلك لكثرة تمكن الشاعر من العربية، وتوفر غريب ألفاظها وعزيزه بين يديه، حتى كان حوشي العربية أطوع لسليقته من طاعة إنسيِّها لكاتب مجيد.

ومراراً ذرفت عيني وأنا أقرأ عواطف هذا الشاعر الداغستاني يقذفها إلى الحجاز من شاطىء بحر قزوين، محملةً بآمال العجم وأمانيهم، تترقرق شوقاً وحباً ووفاء، ووجدت أن من أعظم الغنائم التي يمكن أن أحصِّلها في عمري أن أحمل إلى روضة النبي هذه الهدية متمثلاً بقوله:

هديَّةً دونَ قدرِ المصطفى عظماً ... وفوقَ مقدارِ مُهديها من العجم
ما فوقها مبلغٌ لي في الثناء ولا ... ترضى بما بلغتْهُ طاقتي هِممي

ورأيت أنَّ جُثوِّي على الركب في حضرة المصطفى ﷺ وأنا رسول هذا المشتاق العاشق أرجى لي في القبول بحضرته، واخترت أن أصحب نسيم الصبا المشتاق إلى الحجاز، الذي يخاطبه ابن دنوغونة بقوله:

أيا نسيم الصبا إن كنت تسعدني ... بلِّغ سلامي إلى سكان ذي سلَمِ
إن سرت يوماً بسَلْعٍ أو بكاظمةٍ ... فحيِّ عني حياً ثَمَّ واحترم
وعفِّر الخد عني بالبقيع وزُرْ ... قبراً حوى خيرَ خلق الله والتزم
وخذْ مع القرب قبل البعد ما سمحت ... به يداه من الخيرات واعتنمِ
وقلْ له إن نجم الدين يسألكم ... أن تجعلوه مع الغلمان والخدَمِ

ورجوت أن أكون السَّاعي في أمانيه؛ إذ قال:

ورَوِّجَنْ هذه الأمداحَ تَنْشُرُها ... مشهورةَ الصِّيتِ بين العرب والعجم
مصحوبةً بفيوضٍ منكَ محييةً ... قلوبَهم كحياة الأرض بالدِّيمِ
واجعلْ تلاوتها ورداً لأمَّتِهِ ... أشهى من العَسَل الصَّافي بكلِّ فَمِ

واجتهدت في خدمة القصيدة راجياً أن تصيبني دعوته الصادقة:

وآتيْن منْ تلاها ثمَّ سَامِعَها ... ومنْ يطالعها من فضلك العَمِمِ
واحفظ إلهي منْ يَسعى ليَنْشرَها ... خطَّاً وطبعاً من الإملاق والنِّقم

المحرم ١٤١٥هـ

نجم الدين بن محمد بن دنوغونة الحزي الداغستاني الملقب بالإمام الداغستاني الخامس، من ألمع القيادات الإسلامية في القوقاز في مطلع القرن العشرين.

ولد نجم الدين عام ١٨٥٨م لعائلة عريقة قوية وغنية في القوقاز، فقد كان أبوه محمد بن دنوغونة من الوجوه البارزة في داغستان، وكان ينهج نهجاً تصالحياً مع الإمبراطورية الروسية، من غير أن يمسَّ ذلك انتماءه الوطني والإسلامي إلى داغستان.

وفي مطلع القرن التاسع عشر التهبت داغستان في ثورةٍ عارمةٍ قادها الأئمة النقشبنديون، وتعاقبت على إذكاء روح الثورة هذه ثلاثة من الأئمة المجاهدين وهم الأمير غازي محمد، ثم حمزة بك، ثم الإمام الكبير شامل[٣] الذي أصبح أسطورة الجهاد في القوقاز، وأقضَّ مضاجع الإمبراطورية الروسية قريباً من ربع قرن.

وفي عام ١٨٥٦م سيَّرت روسيا جيوشاً عظيمة بغرض سحق ثورة الإمام شامل، وعقب معارك طاحنة تمكَّن الروس من إرغام الإمام شامل على النزول على حكمهم؛ إذ أرغموه على اعتزال الحياة السياسية.

في تلك الفترة جاء دور محمد بن دنوغونة والد شاعرنا الكبير؛ إذ تمكن من الحصول على تفويض من القيصر بتدبير شؤون الداغستانيين، وهكذا فقد تحول ابن دنوغونة نائب الإمام شامل سابقاً، إلى موظفٍ كبيرٍ في حكومة القيصر.

[٣] الإمام شامل: قائد أبرز حركات الجهاد التحريري الإسلامي في قفقاسيا، حقق انتصارات أسطورية على الجيوش الروسية، كان ينادي بوجوب قيام حكم إسلامي في بلاد القفقاس كافة، وقيام ذلك في دولة واحدة، وكان شعاره الشهير الذي أطلقه (القوقاز للقوقازيين).

وقد كان هذا التحول سعياً ضرورياً حكيماً لحفظ مكاسب ثورة الإمام شامل، والإعداد للمرحلة القادمة التي جاءت على يد ابنه نجم الدين فيما بعد.

وعندما توفي محمد بن دنوغونة عام ١٨٩٨م كان ولداه أحمد ونجم الدين قد أصبحا مركز اهتمام الشعب الداغستاني الذي تفهَّم إلى حدٍّ ما الدور المهمَّ الذي قام به والدهما.

أما ولده الشيخ أحمد فقد تفرغ للعلم والمعرفة، ورفض أن يأخذ قرشاً واحداً من مال أبيه، على أساس أنَّه مال اختلطت فيه عطايا القيصر بأرزاق والده، ولعلَّ هذا الموقف من الشيخ أحمد كان بالتنسيق مع شقيقه نجم الدين، وكان نتيجة الموقفين إنفاق هذا المال الكبير على مقاومة الروس وتحقيق حرية داغستان.

وهكذا فقد أصبح نجم الدين في آواخر القرن الماضي من أغنى أغنياء داغستان، وأصبحت بين يديه إمكانات تؤهله لإعلان الجهاد ضدَّ الروس.

إلى جانب ذلك فقد كان نجم الدين قد حقق تبحراً عظيماً في علوم الشريعة؛ إذ رحل إلى تركيا والحجاز وبلاد الشام، وأفاد رسوخاً في العلم ونبوغاً في الأدب العربي، وسوف تكتشف مدى ذلك عندما تقلب صفحات هذه القصيدة المعجزة.

وقد بدأ نجم الدين حملته لتوحيد إرادة الداغستانيين ضدَّ القياصرة عقب وفاة والده؛ إذ بدأت تلك الحركة التحررية من مناطق الأَوَر والغموق، ومشى نجم الدين مع المفكر الإسلامي الحاج أذن توكل، ونُظِّمت انتخابات شُوريَّة بويع إثرها الشيخ نجم الدين قائداً لكفاح داغستان ضدَّ الروس.

وكان لابدَّ من خطوة أخرى نحو توحيد الجهاد في شمال القوقاز، وبالفعل تنادى القوقازيون عموماً إلى عقد مؤتمر عام في مدينة (عندمور) صيف عام ١٩١٧؛ إذ اجتمع سفراء شاشان وأنغوش وبلقار وكبردينيا وداغستان، وهناك ألقى نجم الدين كلمته المشهورة[٤] التي انتُخِب على إثرها ليصبح الإمام الخامس لحركة الجهاد لعموم شمال القوقاز.

وفي عام ١٩١٨ وعقب قيام ثورة أكتوبر البلشفية اتخذ ابن دنوغونة قراره الحاسم بإعلان الاستقلال التام، وهكذا فقد توجه في شهر شباط من هذا العام إلى (تمرخان شورى)؛ إذ عقد مع أنصاره مؤتمراً حاشداً وطرح إعلانه الشهير بوجوب طرد الروس وإقامة دولة إسلامية في القوقاز.

وعلى إثر هذا المؤتمر بدأت المواجهات العنيفة بين المجاهدين والقوات الروسية (إسبلكم)، وقد تصدت ميليشيات البلاشفة الشيوعية لكتائب ابن دنوغونة، وكانت تتفوق عدداً وعدَّة، نظراً لمخزون السلاح الروسي في أيديهم، ولكن رغم ذلك فقد اضطرت قوات الحكم المحلي الروسي (إسبلكم) للاعتراف بوجود الدولة الإسلامية في داغستان، وبدأت التفاوض بشأن انسحابها مع الشيخ نجم الدين من جانب، ومع الشيخ علي الآقوشي من جانب آخر، بغرض كسب الوقت وخلق شرخٍ في صفوف المجاهدين.

واستأنف المجاهدون هجماتهم عام ١٩٢٠ في مناطق الأور بغرض طرد الحامية الروسية الشيوعية، حين تبيَّن لهم أن الروس لا يخططون للانسحاب، ولكن ذلك حرَّك القيادة

[٤] انظر تفاصيل أوسع عن جهاد داغستان ضد الروس والشيوعيين فيما أثبتناه في هذه الطبعة عن الجهاد الشيشاني نظراً لتلازم مسار الجهاد في كل من البلدين المتجاورين.

العسكرية في موسكو التي وجهت جحافل جرارة لسحق الحركة الإسلامية في داغستان وشيشان.

وتمكنت الجحافل الروسية المدججة بترسانة عسكرية مدمرة من السيطرة على المدن المكشوفة، ثم السيطرة على عموم مناطق داغستان، وهكذا فقد انتقل نجم الدين برجاله إلى جبال الشيشان، وبدؤوا يخوضون حرب عصابات فدائية مع القوات الروسية، وهي الحرب التي كبدت الروس خسائر هائلة، كادت أن تنسف الحلم الروسي القديم بالسيطرة على تلك المواقع، بالرغم مما بذلته روسيا من رجال وعتاد.

وبعد خمس سنوات من هذا الجهاد النادر الذي أقضَّ مضاجع الروس، وفي شهر تشرين الأول عام ١٩٢٥ قام الجيش الأحمر تحت قيادة مجرم الحرب (أوبري فيتش) بمهاجمة وادي (ويدوجي)؛ إذ كان ابن دنوغونة يعقد اجتماعاً مع أنصاره الذين أبدوا بسالةً فريدة تجاه ذلك الجيش الكبير، وقد حرص قادة الجيش على القبض على نجم الدين حيَّاً، رغم أن ذلك كلفهم كثيراً من الخسائر؛ إذ نقل إلى سجن (ستونادونو).

وبعد أيام قليلة صدر حكم المحكمة العسكرية في سجن (ستونادونو) بتاريخ ١٩٢٥/١٠/١٥ وقضى بالإعدام على المجاهد الكبير نجم الدين بن دنوغونة.

ولم يعرف أحد بعد ذلك كيف نُفِّذ هذا الحكم ومتى! إذ مارست السلطات الشيوعية تعتيماً إعلامياً على ذلك، ويقال إنهم ألقوه من طائرة، ويقال إنهم طحنوه في طاحونة وذروا رماده في البحر.

وتواطأت الصحافة الشيوعية على طمس جهاد ابن دنوغونة وكفاحه الوطني، وصورته بما يناسب مصالحها وأهواءها، في عملية خائبة من العبث بالتاريخ، وتزوير الحقيقة، حتى انهار ذلك النظام البغيض إلى غير رجعة.

وتقوم الآن في القوقاز عموماً حركات وطنية تهدف إلى إعادة الاعتبار لقادة التحرر الوطني الذين صنفتهم المؤسسات الشيوعية في عداد المجرمين والقتلة، في محاولات مستمرة لطمس حقيقة جهادهم المشروع في الدفاع عن الحرية والحق.

ولا شك في أن الصحوة الإسلامية التي تشهدها داغستان والشيشان اليوم ثمرة من ثمرات كفاح الدعاة الداغستانيين العاملين، الذين كان ابن دنوغونة لسانهم الناطق، وشهيدهم الصادق.

وتعجب حين تطالع ما نظمه ابن دنوغونة من قصائد عصماء، في أعلى درج البلاغة العربية، مع ماعرفتَ من جهاده وكفاحه وقيادته للكتائب ونفيره مع الألوية، فمتى كان يرتاح ذلك المحارب ليجد في وقته فسحة يغوص فيها في معاجم العربية ليستخرج من خباياها تلك الكنوز الدفينة؟

إن لذلك في رأيي تفسيراً واحداً، وهو أن الله عز وجل يكتب البركة في أوقات العلماء فتتَّسع أيامهم القصيرة للمطالب الكبيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

وقد كنت أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب متضمنةً قصيدة واحدة لشاعرنا وهي القصيدة الموسومة: الأزهار الروية في المدائح النبوية، كما كتب على غلافها[٥]، وأتيت على شرح غريب ألفاظها، أردت بذلك أن أضع أمام المشتغلين بتعليم القوقازيين في بلادنا حقيقة ما لدى هذه الشعوب من مواهب دفينة.

وقد كان لصدور تلك الطبعة عام ١٩٩٤م أثرٌ طيبٌ في دفع حركة تعليم مسلمي القوقاز في الشام، على مستوى المهاجرين الوافدين، والأنصار المستقبلين، وأعانني الله عز وجل فأهديت نسخاً منها لكل طالب علم وافد من داغستان او الشيشان.

ثم تكرَّم عليَّ السيد محمد نور داغستاني، والسيد يحيى محمدوف، وكلاهما من الدعاة العاملين في داغستان، وقد كتب الله لهما تحصيل العلم الشرعي في المجمع الإسلامي بدمشق، فأفاداني معلومات مفيدة وجديدة عن نجم الدين ابن دنوغونة الداغستاني[٦]، وكان أحسنها نسخة مخطوطة من ديوان شعر يقع في نحو (٢٤٠) صفحة لابن دنوغونة كتبت بخط السيد حسين بن أحمد الكندي عام ١٩٩٠م، وهي مجموعة من القصائد الرفيعة في أغراض مختلفة من الشعر، ففيها المديح والغزل والفخر والهجاء والردود، وتعليقات له مفيدة، فتواصلت بذلك سعادتي في الاطلاع على روائع أعمال ذلك المجاهد الشاعر، وهي بمجملها ترسم لك صورة الموهبة الهائلة التي أوتيها هذا الرجل في اللغة والبيان، ولا شك أنه لو نشرت أعماله في البلاد

[٥] انظر صورة المخطوطة في نهاية الكتاب.

[٦] وكذلك مقال خاص عن ابن دنوغونة نشرته صحيفة الحقيقة في عددها الصادر في ١٩٩٥/٨/١٢، بقلم محمد عليوف. ترجمه إلى العربية مرتضى علي الداغستاني وهو من طلبة جامع أبي النور بدمشق.

العربية لطار ذكره في الآفاق ولصنف من دون ريب واحداً من أعلام النهضة الأدبية البارزين في هذا القرن.

هذا باختصار ما عرفته عن الشاعر ابن دنوغونة من ألسنة الطلبة والدعاة الداغستانيين الذين جاؤوا إلى دمشق.

وقد جهدت أن أستخرج للشاعر ترجمة حيَّة من كتب التراجم العربية فأعجزني ذلك ولم أهتدِ إلى شيء تقرُّ به العين، وتكتفي به النفس.

ولكن حين وقع بين يدي ديوانه المخطوط أمكنني أن أرسم بواسطته صورة استقرائية لشخصية الشيخ وثقافته وشيوخه وزملائه؛ إذ عرض لهم في ديوانه إما في مديح أو رثاء، وكذلك أتى على ذكر بعض خصمائه.

ولكن يجب أن نعترف هنا بأن معرفتنا بأعلام داغستان ضئيلة للغاية ولم يتيسر لي أن أترجم لهؤلاء المعاصرين باستثناء رجل واحد هو الأستاذ المباشر لأخيه عبد اللطيف الحزي كما ذكر أخوه في مقالة له في الديوان ذاته، ولا يبعد أن يكون نجم الدين أيضاً قد تتلمذ عليه نظراً لوحدة مشرب الأخوين غير أني لم أجد لذلك إشارة كافية.

وهذا الأستاذ هو الشاعر الأديب حسن حسني بن حسين عارف بن حسن الطويراني مولده عام ١٨٥٠ ووفاته ١٨٩٧ ولد في القاهرة، ونشأ بها، وهو من أصل تركي، وأقام بالقسطنطينية إلى أن توفي وكان غزير الأدب، صدر له بالعربية حوالي ستين مؤلفاً، وفي التركية

نحو عشرة، ونظم ستة دواوين بالعربية، واثنين بالتركية، إضافة إلى جرائد عدَّة رئس تحريرها، وقد التقاه عبد اللطيف ابن دنوغونة فأخذ عنه وتخرج به وعبارته في ذلك:

إني وإن كنت من المولعين بهذا الخطب الجليل والمتطلبين لنفعه الجزيل، لكن لم يتبين لي يمينه من الشمال، وسهوله من الجبال، إلى أن مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ برحلتي إلى مملكة الإسلام، والاجتماع بجهابذتها النجباء الفخام، فصرفت همتي الفائرة في نقد الأشعار وشرب زُلَالِها من حوضهم، وعرض بعض ما نظمته على بعضهم، وهو العلَّامة الربَّاني حسن حسني بيك الطويراني، فلم يزل حفظه اللطيف الخبير يبين وجوه التحبير إلى أن تخرجت عليه بفضل سبحانه وتعالى أنه ميسر كل عسير.

هذا ما أدركناه من ترجمة الطويراني في المصادر المتوفرة لدينا، أما الشيوخ الآخرون من الذين أتى نجم الدين على ذكرهم في ديوانه، فهأنا أذكرهم لك وليس عندي لهم أي ترجمة، ولعلَّ الله يسعفني بمن يعرفهم فيترجم لهم فنفيد من ذلك في طبعات قادمة.

قصيدة في الثناء على الشيخ محمد الخشدادي.

ذيلٌ على قصيدة الخشدادي من عمل: مرتضى علي العتلجي.

قصيدة في مناظرة الشيخ علي الثغوري.

قصيدة في الثناء على الشيخ محمود أفندي العبودي.

قصيدة في رثاء العلامة الغوث: أبي أحمد الشيخ الحاج عبد الرحمن الثغوري.

قصيدة في لوم فخر الأرغني.

قصيدة كتبها إلى حسن الألقداري، قصيدة أخرى في مآثره.

قصيدة له في الجواب عن أخيه الحاج عبد اللطيف الحزي.

قصيدة أنشأها لتكتب على قبر حاج مراد الأواري.

قصيدة في مدح السلطان عبد الحميد خان وعساكره في حرب اليونان.

قصيدة في مآثر الشيخ محمد الككني

قصيدة في مدح العارف بالله الشيخ كنت حاج المشكي.

قصيدة جوابيه لزيد الكركلي.

رثاء للمحقق أبي تراب السلطي.

قصيدة لمحمد عمري الأحلي.

مع مجموعة من القصائد الأخرى.

ولا شك أن أكثر الناس صلة بشاعرنا هو أخوه العلَّامة عبد اللطيف الحزي، ويظهر أنه نهج نهجه في أدبه وأسـلوبه، وله مجموعة من القصـائد في الديوان ذاته لا تكاد تم يزها من قصائد أخيه نجم الدين.

وهاأنا أضع بين يديك الطبعة الثانية مُصدَّرة بهذه الترجمة الخجولة لرجل كبير، مشفوعة باعتذاري عن تقصـيري في ترجمته كما يسـتحق، معللة بدعاء مأثور: اللهم إني أعوذ بك من العجز فيما أعلم، ومن تكلُّف ما لا أعلم، وقد رأيت أن أضيف إلى هذه الطبعة مجموعة أخرى

من قصائد ابن دنوغونة في المديح النبوي خاصة؛ إذ ذاك مما يتسق مع عنوان كتابي: «أشواق داغستان»، وقد تركت نشر بقية قصائد الديوان إلى فرصة قادمة.

وقد ذيلت ما تشتد إليه الحاجة من شرح غامض الكلمات في هذه القصائد تاركاً للقارىء الكريم أن يخوض في لجج معانيها كما يشاء.

والقصائد التي أضفتها هي: قصيدة من البسيط، قافيتها قاف مكسورة في أربعةٍ وسبعين بيتاً، مطلعها:

لله ما أنا من سُمِّ الهوى لاقٍ هل بالتلاقى الذي أهواه لي راق

قصيدة من البسيط أيضاً كافيتها راءٌ مضمومة، في (١٦٢) بيتاً مطلعها:

لا ينفعُ المرءَ في دنياه تدبيرُ إلا إذا ساعد التدبيرَ تقديرُ

وقد اقتصرت على إيراد سبعين بيتاً منها فقط؛ إذ هذا هو القدر الذي خصَّصه للمديح النبوي منها، وهذا ما ينسجم مع طبيعة الاختيار الذي أوردناه من قصائده.

وقصيدته الغرَّاء تتألف من ٣٦٢ بيتاً، وقد أوردتها لك مشكولةً، واجتهدت أن أشرح غريبها مستنداً في الأساس إلى ما دوَّنه الناسخ على هامش مخطوطته، واستكملت شرحها من مراجع اللغة الأصول، فجاءت هاتان القصيدتان وصيفتين للقصيدة المعجزة التي سطرها ابن دنوغونة في المديح، ولم تلقَ حتى اليوم ما تستحقه من عناية واهتمام.

وأؤكد للقارىء الكريم أنني عشت في رحاب هذه القصيدة الصَّادقة نحو عشرين يوماً وأنا أقلِّب معانيها، وأدهش لما تضمنته من فنون القول وروائع الأدب، ولم تغب عن خاطري

روح ذلك الشاعر الداغستاني، وهي تشتاق إلى أريج المدينة، وتصل ما بين العرب والعجم برباط غير منصرمٍ من الحبِّ والكلف والشوق.

لقد تحطم اليوم ذلك الغل الحديدي الأحمر، الذي كان يطوِّق بكلكه شعوب وسط آسيا وقوقازيا المسلمة، وانجلى ذلك الحدث التاريخي عن شعوب طامحة، ظهورها مرهقة بمظالم الإلحاد، وقلوبها بكر مشتاقة إلى تاريخها تواقة إلى ماضيها، تتلمس في حناياها جذوة الإيمان.

إن الشعوب الإسلامية مطالبة اليوم أن تؤدي حقَّ الوفاء الذي ستطالبها به الأيام، تجاه تلك الشعوب الصابرة، التي لقيها العنت والخسف والمظالم، فكانت به صابرة راضية، وما بدلت تبديلاً.

وأسأل الله أن يكتب جهدي المتواضع هذا في سجل الوفاء لقلوب العجم الصادقة التي نطقت بلسان عربي مبين.

قراءة في تاريخ الكفاح الإسلامي في داغستان

داغستان جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن جمهوريات روسيا الاتحادية، تحدها جنوباً أذربيجان، وغرباً جورجيا وشيشانيا، وتحدها روسيا من الشمال والشمال الغربي، فيما يحدها شرقاً بحر قزوين.

وتبلغ مساحتها ٣٠٠,٥٠ كم٢، وعدد سكَّانها ١,٦٠٠,٠٠٠ نسمة حسب إحصاءات عام 1980م

وتسمية داغستان[١] مركبة من كلمتين (داغ) وهي الجبل بالتركية، و(ستان) وهي الأرض بالفارسية فيكون معنى التسمية: الأرض الجبلية، وهو وصف لطبيعة داغستان الجغرافية؛ إذ يتموضع أغلب النشاط السكاني في مدن وقرى جبلية في سفوح قمم شاهقة.

وبسبب من طبيعتها الجغرافية، فقد كانت تستعصي على الفاتحين الغزاة، ولم يخضع شعب داغستان لأي حكم أجنبي في تاريخه خضوعاً مطلقاً حتى كانت السيطرة الروسية عام١٨٦٠م.

[١] انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة داغستان.

ويتداخل تاريخ الداغستان مع تاريخ الشيشان، نظراً لتجاورهما جغرافياً وتشابه التقاليد والمعتقدات والتاريخ.

ويعود الوجود الإسلامي في داغستان إلى العهد الأموي في زمن هشام بن عبد الملك؛ إذ وصلت جيوش الفتح بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك.

ويُرجع ابن كثير تاريخ وصول المسلمين إلى داغستان إلى ما قبل ذلك بكثير؛ إذ يشير إليها في حوادث عام٢٢هـ أيام عمر بن الخطاب، فيذكر أن سراقة بن عمرو ذي النور جاوز أرمنستان إلى داغستان بعساكر المسلمين، وأمير مقدمتهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، ولقبه أيضاً (ذو النور)، وكان على الغنائم سلمان بن ربيعة الباهلي، وقد عدَّ ابن حجر العسلقاني كلًّاً منهم في الصحابة، في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة».

وقد أمضى الصحابة المذكورون أيامهم في نشر الدعوة في داغستان، ومحاربة الخزر حتى كتب الله لهم الشهادة، ولم يذكر ابن كثير مواقع قبورهم، وإن كان اعتقاد الداغستانيين أنهم دفنوا في شمال دربند في المزار المعروف (خلار مزار).

وعقب استشهاد الثلاثة، انحسر الوجود الإسلامي في داغستان، وشهدت البلاد تسلطاً خزرياً دامياً إلى أن وصلت دفعات جديدة من الفاتحين، أولهم قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٨٩هـ، ثم الجراح بن عبد الله الحكمي سنة ١٠٥هـ، ولكن الوجود الإسلامي في داغستان لم يستمر إلا عندما وصل مسلمة ابن عبد الملك عام ١١٣هـ.

وقبل مسلمة وبعده، فإن أكبر منافس على داغستان كان يتمثل في قبائل الخزر الذين تمكنوا من صد حملات الفتح الأولى، وحاربوا مسلمة حرباً شديدة، غير أن مسلمة تمكن من إرساء الوجود الإسلامي في دربند، فيما انصرف الدعاة من أصحابه إلى نشر الإسلام في جبال داغستان.

وفي أيام هارون الرشيد ولي داغستان خزيمة بن جازم، فأرسى فيها استقراراً إدارياً وعمرانياً حتى إن هارون الرشيد حضر بنفسه إلى دربند، فأقام فيها سبعة أشهر، ومات وله ولدان دفنا في مقبرة (خلار مزار).

والحق أن الغزوات الخزرية لم تنقطع بعد مسلمة؛ بل استمرَّت بين الحين والأخر، ولكن دربند ظلت دوماً مستعصية على الخزر، رغم ما خاضوه من حروب طاحنة في سبيل احتلالها.

والحق أن مسلمة لم يكن مهتماً بفتح داغستان بقدر ما أهمَّه السيطرة على دربند التي جعل منها حصناً بالغ الأهمية واعتبرها ثغراً من ثغور المسلمين.

وفي تاريخ داغستان فإن ممر دربند الجبلي فصم تاريخ شمال داغستان عن تاريخ جنوبها، وهي أجدر أن تكون بسبب هذا الفصم الجغرافي وحدتين تاريختين منفصلتين، على كل حال فإن الطبيعة الجبلية تغلب على داغستان عموماً باستثناء السواحل القزوينية.

وقد كانت داغستان عموماً مسرحاً للأديان الثلاثة: النصرانية واليهودية والإسلام، وكان الحكم فيها غير مستقر يتناوبه عادة أمراء محليون، غالباً ما كان يكتسحهم مدٌّ روسي أو خزري أو فارسي، وبدءاً من القرن الثاني الهجري جعلت داغستان تتحول إلى الإسلام، ولم يكن هذا

التحول شاملاً وسريعاً بالطبع؛ إذ إن الطبيعة الجغرافية القاسية لداغستان كانت تسمح بتباين عقائدي كبير بين السكان المحليين.

ولكن حركات الدعوة إلى الله لم تتوقف في تاريخ داغستان، وكان الزمن في صالحها؛ إذ أصبحت داغستان في النهاية أرضاً إسلامية.

ولعل من أقدم المعالم الإسلامية في داغستان مسجد في قرية شمخ يقال إن مؤسسه هو الداعية المسلم أبو مسلم المروزي[٢]، وفي المسجد قبره وبردته وسيفه، وقد نقش على القبر أن وفاة أبي مسلم كانت عام (١٥٠هـ).

وقد شككت دائرة المعارف الإسلامية بهذه المعلومات، وشككت أيضاً في انتشار الإسلام في داغستان قبل القرن العاشر الهجري!

ومهما يكن من أمر فإن غلبة التسميات العربية، وارتباط الداغستان بالقضايا الإسلامية يجعلنا نؤكد أن داغستان أصبحت بلداً إسلامياً في قرنين أو ثلاثة بعد مسلمة بن عبد الملك، بغض النظر عن سياسات حكَّامها المحليين أو الوافدين.

وكان الزعماء المحليون يسمون: الشامخال، ويرجع كثير من المؤرخين تسمية الشامخال إلى بلاد الشام التي وصل رجالها إلى الأمصار الداغستانية.

[٢] ثمة قولان في ترجمة أبي مسلم هذا، الأول: إنها كنية مسلمة بن عبد الملك، ولكن مسلمة لم يكن مروزياً، أضف إلى ذلك أنه مات في الشام. انظر سير أعلام النبلاء ترجمة مسلمة، والقول الثاني: إنه داعية مروزي سافر من عربستان بعياله إلى داغستان واشتغل بتعليم الشريعة وتوفي في قرية خونزاخ.

وكذلك تسمية الأمير بـــ(قازي) التي تعني غالباً (الغازي) أي: المجاهد في سبيل الله، وتسمية (أوسمي) التي ربما يكون لها ارتباط بأعلام الفاتحين المسلمين الأوائل (مسلمة) أو (أبو مسلم).

وسجلت أول سيطرة عثمانية على الأراضي الداغستانية عام٩٨٦ هـ، ولكنها لم تستمر إلا تسعة وعشرين عاماً حتى ظفر الفرس بها في عهد الشاه عباس الصفوي عام 1015هـ، وهكذا تقسم ولاء الحكام المحليين بين الفرس والعثمانين.

وبدءاً من القرن العاشر فإن روسيا والسلطنة العثمانية وفارس جعلت تتنازع السيطرة على داغستان، وفي كل هذه الفترات كان حكام محليون ينتفضون على الاحتلال الأجنبي.

ففي عام ١١٣٤هـــــ سيَّر بطرس الأكبر حملة إلى فارس واحتل في طريقه أراضي داغستان، وادعى حق روسيا في هذه السواحل المهمة.

ولكن الشاه الفارسي نادرشاه ١١٤٧هـــ عاد فمدَّ نفوذه إلى البلاد متحدياً بذلك الإرادة الروسية، وظلت البلاد بعد مقتل نادر شاه ١١٦٠هـ في حالة من التفكك نحو نصف قرن، وفي الحقيقة فإن ذلك النزاع المستمر لم يكن يتجاوز البلاد الساحلية، في حين ظلت المناطق الجبلية وهي تشمل أكبر قمم البلاد في أيدي الحكام المحليين.

وفي تلك الفترات كلها فقد كان الدعاة المسلمون بزعامة الصوفية منهم يطوفون البلاد في غيبة عن النزاع السياسي، وينشرون فيها الدعوة الإسلامية، وأصبحت الطريقة النقشبندية هي السمة الغالبة على كل السكان المحليين.

وفي عام ١١٨٨هـ، و١٧٧٥هـ اكتسحت روسيا البلاد من جديد، وبعد (٢١) عاماً عاد الفرس من جديد، فاحتلوا داغستان بعد أن انتصروا على الجيش الروسي في عهد كاترين الثانية عام ١٢٠٩هـ ـ١٧٩٦م، ولكن ذلك لم يطُل، فعادت روسيا من جديد عام ١٢٣٠هـ ـ١٨٠١م، ولم تكن الجيوش الحقيقة تتجاوز السواحل الداغستانية، أما المرتفعات فقد كانت في أيدي الحكام المحليين كما أسلفنا، وهؤلاء كانوا عادة يتوزَّعون في ولائهم بين الفرس والعثمانيين أو يكونون دون ولاء لأحد.

وفي عام ١٨١٣ نزلت إيران عن داغستان لصالح روسيا، وبدأ الروس يوطدون سلطانهم في داغستان في غياب المنافسة الفارسية، كما لو كانت داغستان إرثاً شرعياً محضاً لهم.

ويمكن القول إن الثورة الإسلامية في وجه الروس قد بدأت عام ١٨٣٠م ـــ١٢٤٥هـ، وذلك عندما أفتى الأئمة النقشـــبنديون بوجوب محاربة الكفار، وظهر الأمير غازي محمد، ويسميه الروس قاضي ملَّا، منادياً بوجوب تحكيم الشريعة الإسلامية وطرد الكفار من التراب الداغســـتاني كله، وقد كان الأمير غازي محمد فقيهاً رفيعاً، وقد عرف بالتبحر في العربية إلى مستوىً عالٍ، وقد كتبت له الشهادة عام ١٨٣٢م، فخلفه حمزة بك، ولكنه استشهد أيضاً عام ١٨٣٤م، وخلفهما الأمير شامل الذي أصبح رمزاً للمقاومة الداغستانية في وجه الروس، واستمر في الكفاح قرابة ربع قرن، وأحرز انتصارات مذهلة على الروس، وخصوصاً عامي ١٨٤٣. ١٨٤٤، واقتصر الوجود الروسي حينئذٍ على السواحل فقط إلى عام ١٨٧٧م.

وفي هذه المدة لم تهدأ داغستان من الانتفاضات المستمرة في وجه الروس، وخصوصاً انتفاضة ١٨٥٩م.

ومع مطلع هذا القرن كان شاعرنا نجم الدين بن دنوغونة من ألمع القيادات الإسلامية حركة ونشاطاً، وكانت صلاته الواسعة بالقيادات الإسلامية في آسيا الوسطى وفي الشرق الأوسط تكسبه عمقاً استراتيجياً ظاهراً، وكذلك فإن تمكنه من العربية والعلوم الإسلامية جعلت منه واحداً من ألمع القيادات الإسلامية في داغستان، واستمرَّ كفاح ابن دنوغونة في تصاعد حتى أصبح يمثل تحدِّياً حقيقياً للوجود الروسي برمَّتِه في داغستان، ولكن تفاقم الأحداث وظروف الحرب العالمية الأولى كان أكبر من جهد ابن دنوغونة وجهاده المحدود الوسائل، وهكذا فقد أفاد البلاشفة من ظروف الحرب العالمية الأولى، وقام الجيش الشيوعي الأحمر باكتساح داغستان بجيش عرمرم، لتصبح واحدة من الولايات السوفيتية ضمن جمهورية روسيا الاتحادية، وكان من أول القرارات التي اتخذها الحاكم العسكري الشيوعي في داغستان إعدام ابن دنوغونة، وهناك حكايتان يرويهما الناس بشأن إعدامه، فقد قيل إن ابن دنوغونة اعتصم بمقاطعة جبلية صعبة، ولكن الشيوعيين تمكنوا من دخول قريته وأسروا حوالي عشرين من خيرة رجال هذه البلدة وهددوا بقتلهم جميعاً إن لم يظهر ابن دنوغونه.

وهكذا فقد اختار أن يسلِّم نفسه إيثاراً لإخوانه على نفسه، ولم تتورع السلطات الشيوعية عن إعدامه فوراً، وقيل إنهم ألقوه من طائرة، وقيل إنهم ألقوه في طاحونة ثم قذفوا رمَّته في البحر وذلك عام ١٩٢٥م.

ودخلت داغستان في جحيم الحكم الشيوعي الذي كان يسحق أيَّ تمرّدٍ بوحشية كاسرة، وسجلت هِجْرات عدَّة من داغستان إلى آسيا الوسطى والشرق الأوسط، وقد سعدت دمشق بهجرات داغستانية عدَّة إليها ولمع في سماء الشام عدد من هؤلاء المهاجرين نذكر منهم

الشـيخ عبد الله الداغسـتاني، والعلامة الشـيخ محمد سـعيد البرهاني شـيخ الطريقة البرهانية ومؤسس النهضة العلمية في جامع التوبة بدمشق.

ولا يزال لهم في الشام إلى اليوم حيٌّ في جبل قاسيون، وإن يكن عدد منهم قد اختلطوا بسكان الشام ولم يجدوا أي عقدة في الإقامة الطيبة في ديار الشام في أحياء دمشق كالميدان والصالحية.

وفي أعقاب انهيار الحكم الشـيوعي في الاتحاد السـوفيتي عادت داغسـتان تطالب باستقلالها عن الروس والعودة إلى الشريعة الإسلامية، واعترف الروس مبدئياً بالوضع الجمهوري لداغستان ضمن اتحاد روسيا، وهو الأمر الذي كان موجوداً في الأصل على صفحات الدستور الروسي فقط.

وتشهد داغستان اليوم نهضةً إسلاميةً حقيقية، وقد وفد إليها دعاة من سورية والسعودية وإيران وتركيا، وبعثت الحياة في المدارس الإسـلامية، وأوفد مفتي سـورية عدداً من الدعاة المتخصصين بتاريخ ولغات المجتمع الداغستاني وذلك عام 1992م والأمل كبير أن يستعيد الشعب الداغستاني مجده وعافيته، ويتبوأ منزلة طيبة في الصحوة الإسلامية تليق بما قدمت من أعلام كبار كالأمير غازي محمد والأمير شامل وابن دنوغونة وغيرهم[٣].

[٣] وجه سماحة الشيخ أحمد كفتارو المفتي العام للجمهورية العربية السورية، ورئيس مجلس الإفتاء الأعلى، العناية الكبيرة للنهضة بالدعوة الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية في قفقاسيا وآسيا الوسطى، وقد أمكنه أن يتحرك في هذا السبيل على أربعة محاور:

الأول: توجيه الدعاة الأكفياء من دمشق إلى تلك البلاد، والقيام برعايتهم وتمويل نشاطهم في هذا السبيل.

الثاني: تقديم منح دراسية لأفراد منتخبين من الجمعيات الإسلامية في القوقاز وآسيا الوسطى، وتوفير الظروف الدراسية المناسبة لإعدادهم دعاة أكفياء في بلادهم.

القضية الشيشانية

حينما صدرت الطبعة الأولى من هذه (الأشواق) لم تكن المسألة الشيشانية قد برزت على المسرح الدولي بالوجه الذي تتفاعل فيه اليوم، ولذلك فإنني أتيت عابراً على داغستان والشيشان على أساس أنها البلاد التي انطلق منها جهاد شاعرنا ابن دنوغونة، من غير أن تتاح للقارىء الكريم فرصة التعرف بعمق إلى القضية الإسلامية في الشيشان وعموم قوقازيا.

واليوم فإنني أجد لزاماً عليَّ وأنا أدفع الكتاب للطبعة الثانية أن أمضي مع قارئي الكريم إلى التعرف إلى ما لا يجوز أن يجهله مسلم من معاناة إخوانه في الشيشان في هذه الأيام الرديئة.

ولابدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ يواسيك أو يسليك أو يتوجع

الشيشان أو (ججن) كما يرد ذكرهم في الدراسات القديمة، شعب قوقازي عريق، يسكن في مرتفعات قوقازية، ضمن أرض تبلغ مساحتها نحو (١٩,٣٠٠) كم٢، وتعرف باسم (شيشان أنغوش) نسبة إلى الشعبين المتلاحمين اللذين يمثلان غالبية السكان في هذا الإقليم؛ إذ

الثالث: تنظيم ندوات تعليمية وتدريبية مكثفة للدعاة العاملين في تلك البلاد، وقد تم بالفعل تنظيم دورة ناجحة لنحو سبعين من الدعاة الداغستانيين والشاشان في مجمع النور الإسلامي بدمشق عام ١٩٩٣، وكذلك نظمت دورة أخرى صيف عام ١٩٩٤ لضعف العدد تقريباً، وتجري الآن الدورة الثالثة لما يقرب من ١٥٠ شخصاً من تلك الجمهوريات.

الرابع: المساعدة في إنشاء المدارس الشرعية، وتشغيل المتوقف منها، وقد تم بالفعل إحداث عدة معاهد شرعية في داغستان وشاشان وقرغيزيا.

بلغت نسبتهم بعد حملة التهجير الستاليني الظالمة: ٧٦% شيشان، و٢٠% أنغوش، و٤% كيست.

وتقع جمهورية الشيشان وسط قوقازيا فتحدها شرقاً داغستان، وتحدها جنوباً جورجيا، وتحدها شمالاً روسيا، فيما تحدها غرباً جمهوريات أوستينا وكبردينيا بلقار ذات الحكم الذاتي ضمن اتحاد روسيا.

وموقعها بالنسبة إلى داغستان يشبه موقع لبنان بالنسبة إلى سورية؛ إذ تزيد مساحة الداغستان على شيشان نحو ضعفين وتبلغ (٥٠,٣٠٠) كم٢، وتحدها من جهات المشرق كلها وبعض الشمال والجنوب أيضاً.

وبلغ عدد سكان الشيشان عام ١٩٩٠ نحو مليون ونصف نسمة، ولكن هذا الرقم لا يعبر إلا عن نحو ربع الشعب الشيشاني الذي مزقه التشريد والإبعاد وتلاحق المظالم.

ويشير المؤرخ السيد (ق.ت جونا توقه) مؤلف كتاب تاريخ القوقاز إلى أن الاعتقاد السائد في الشيشان أن هذا الشعب عربي الأصل، وأنه تحرر من جد يقال له: (علي عرب)، قدم إلى قوقازيا من دمشق الشام في تاريخ بالغ القدم، ومن ولده جاء (ناخ جو)، الذي يعتبر الجد المباشر للشاشان، ويحب الشاشانيون أن تناديهم باسم (ناخجلي) التي معناها عندهم أيضاً: (الملة).

ولكن المؤرخ المذكور ينكر هذا الاعتقاد، ويعتبره أسطورة حالمة، ويؤكد أن أصل الشعب الشيشاني من قوم (طوربيل) الذين ذكرهم هيرودوت بأنهم من قبائل الجراكسة التي كانت

تسكن سواحل بحر قزوين الشرقية ثم هاجرت واستوطنت شرق قوقازيا، وعلى كل حال فإن ثمة آثاراً باقية تشير إلى وجود الشيشان على أرضهم الحالية منذ عام ٢٠٠٠ ق.م حسب ما حققه المؤرخ أوسلر.

وتعتبر المسألة الشيشانية من أكثر المسائل حساسية في العالم الإسلامي، ومع أنها تفجرت على المستوى الدولي منذ فترة قريبة نهاية عام ١٩٩٤م غير أنها لم تزل تتفاعل على المستوى المحلي منذ أكثر من مئتي عام عندما اندلع الصدام المسلح بين الإمبراطورية الروسية ومسلمي الشيشان والداغستان والقبرطاي.

ولم تكن ثورة ابن دنوغونة في الداغستان والشيشان إلا جزءاً من سلسلة متلهبة من الثورات الإسلامية التي قامت في قوقازيا بدءاً من حرب الإمام منصور ١٧٨٣م، التي شهدت ذروتها وألقها في الحركة المريدية ١٨٥٦م بقيادة الإمام شامل الذي حقق انتصارات هائلة على الجيوش الروسية المدججة وأصبح أسطورة تلهم حركة الكفاح التحرري في القوقاز وآسيا الوسطى.

وأجد من الحكمة هنا أن عرض بشيء من الإيجاز لتاريخ الحركة الإسلامية في مناطق ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي، ذلك أنها تعيش اليوم هماً إسلامياً متشابهاً، وما حدث في الشيشان مرشح أن يتكرر في غيرها من هذه المناطق، نظراً لتشابه الواقع التاريخي، وتوفر الأطماع الخارجية.

المسلمون في الاتحاد السوفياتي السابق ينتشرون في منطقتين رئيستين:

الأولى: آسيا الوسطى وكازاخستان، وهي المناطق التي تنحصر بين شمال الصين وبحر قزوين، وتحدها جنوباً الصين وأفغانستان وإيران، فيما تحدها شمالاً روسيا وتزيد مساحتها الإجمالية عن مليون كم٢، وقد أعلنت جمهوريات آسيا الوسطى وكازاخستان استقلالها اليوم، واعتُرِف بهذا الاستقلال على المستوى الدولي، وهي اليوم: كازاخستان وأوزبكستان وقيرغيزستان وطاجكستان وتركمانيا، ونسبة المسلمين في مجموعها لا تقل عن ٧٥% من السكان، فهي تزيد عن ٨٠% في طاجكستان وأوزبكستان وتركمانستان، و٧٠% في قيرغيزستان، و٥٠% في كازاخستان.

الثانية: منطقة القوقاز وشمالها، وهي المنطقة المحصورة بين بحر قزوين والبحر الأسود، ويعيش المسلمون ضمن مناطق منها تبلغ مساحتها نحو ٣٠٠ ألف كم٢؛ إذ يشكلون أغلبية واضحة في جمهورية أذربيجان المستقلة والجمهوريات التي لا تزال ضمن الاتحاد الروسي.

كما توجد تجمعات إسلامية ظاهرة في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي السابق، ولكنها لا تتشكل في إطار جغرافي أو إداري مستقل.

ويمكن قراءة الأرقام الدقيقة لنسب المسلمين وعددهم في تلك المناطق بواسطة الجداول المرفقة:

المسلمون في آسيا الوسطى وكازاخستان:

		عاصمتها	المساحة/ كم٢	السكان/مليون احصاء ١٩٨٠	نسبة المسلمين من السكان	ملاحظات
جمهوريات مستقلة	أوزبكستان	طشقند	٤٠٠,٠٠٠	١٥,٤	%٨٧	تضم مدينة سمرقند وبخارى
	كازاخستان	آلما آتا	٢,٧١٧,٣٠٠	١٥	%٥٠	
	طاجاكستان	دوشنبه	١٤٣,٠٠٠	٥	%٨٥	
	قرغيزية	فرونزوه	١٥٠,٠٠٠	٥	%٧٠	
	تركمانيا	عشق آباد	٤٨٨,١٠٠	٣	%٨٢	
جمهورية ذات استقلال ذاتي	قره قلبقستان	نوخوس	١٦٥,٠٠٠	١	%٩٥	تتبع أوزبكستان
منطقة ذات استقلال ذاتي	غورنوبد خشن	خوروغ	٦٣,٧٠٠	٠,٢	%٩٩	تتبع جمهورية طاجكستان

المسلمون في القوقاز:

		عاصمتها	المساحة/ كم٢	السكان/مليون احصاء ١٩٨٠	نسبة المسلمين من السكان	ملاحظات
جمهورية مستقلة	أذربيجان	باكو	٨٦,٦٠٠	٦	%٨٢	تضم نخيشيفان وناغورنوكاراباخ
جمهوريات ذات استقلال ذاتي	تتاريا	قازان	٦٨,٠٠٠	٣,٥	%٤٧	العدد الإجمالي للتتار في روسيا ٦,٣ مليون ربعهم في تتاريا فقط
	بشكيريا	أوفا	١٤٣,٥٠٠	٤	%٥٠	
	كبردينيا بلقار	نالتشيك	١٢,٥٠٠	٠,٧	%٥٥	
	داغستان	مختش قلعة	٥٠,٣٠٠	١,٦	%٨٥	تتميز بتعدد اللغات
	شيشان أنغوش	غروزني ونزران	١٩,٣٠٠	٠,٧٦ شيشان ٠,٢ أنغوش	%٨٠	استقلت عن روسيا الاتحادية من طرف واحد
	نخيتشيفان	نخيتشيفان	٥,٥٠٠	٠,٣	%٨٠	تتبع أذربيجان
مناطق ذات حكم ذاتي	الأديغة	مايكوب	٧,٦٠٠	٠,٥	%٢١	تتبع إقليم كراسنودار في روسيا الاتحادية
	قره تشاي شركس	شركس	١٤,١٠٠	٠,٤	%٥٥	تتبع إقليم ستافروبول في روسيا الاتحادية
	ناغورنو قره باخ	ستباناكرت	٤,٤٠٠	٠,٢	%٢٠	تتبع جمهورية أذربيجان

وقد بدأ وصـول الإسـلام إلى هذه المناطق منذ فجر الدعوة الإسـلامية، فقد وصـلت جيوش الأمويين إلى منطقة قوقازيا بغرض السـيطرة على ممر دربند كما بيَّنا ذلك قبل قليل، أما مناطق آسيا الوسطى فقد وصلها الفتح الإسلامي أيضاً في القرن الأول الهجري، وقد أطبقت المصـادر التي ترجمت للصـحابي الجليل قثم بن العباس أنه دفن في سمرقند بأوزبكسـتان ولا يزال ضريحه معروفاً مشهوراً حتى اليوم.

ولا شـــك أن هذه الحملات المبكرة من الفتح وإن أثمرت قيام حكومات إســـلامية في بعض مناطق آسـيا الوسـطى وقوقازيا غير أنها لم تكن كافية لتحول هذه الشـعوب من أديانها التقليدية إلى الإسلام.

ويمكن القول إن دخول الإسلام إلى هذه المناطق تمَّ عبر وسائل ثلاث، وفي مراحل زمنية مختلفة نلخصها كالآتي:

أولاً: الفتوح الإسلامية، وقد مرت بمراحل عدَّة:

الأولى: فترة الدولة الأموية، فقد وصـلت جيوش مسـلمة بن عبد الملك إلى شـواطىء قزوين، كما وصل قتيبة بن مسلم إلى بخارى وسمرقند.

والثانية: نشاطات السامانيين والغزنويين في القرن الحادي عشر الميلادي.

والثالثة: فتوح المغول بعد إسلامهم في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، فإضافة إلى مناطقهم التقليدية في سفوح الهمالايا التي امتدت لتشـمل سائر آسيا الوسطى فإنهم أيضاً سيطروا على مناطق واسعة من القوقاز والقرم وشمالي البحر الأسود وكامل شواطىء قزوين.

ثانياً: عن طريق التجار، فقد كان هؤلاء وسيلة حقيقية لنشر الإسلام، وذلك عبر طريق القوافل التجارية الشهير طريق الحرير الذي ازدهر إبان القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، ويمتد من الصين شرقاً إلى خراسان في إيران.

ثالثاً: الحركات الصوفية، وقد كانت تمثل رفيداً طبيعياً لنشاط الفاتحين، وقد سجل نشاط كبير لأئمة الطرق الصوفية في غياب حركة الفتح الإسلامي، فقد كان رجال التصوف يتغلغلون في هذه الشعوب، فيحملون إليها الدعوة الإسلامية، وينشرون الثقافة والمعرفة الإسلامية.

ولا شك أن النشاط الأكبر للحركات الصوفية تجلى في سنيّ المِحَن المتلاحقة، فخلال ما يزيد على ثلاثمئة عام من بطش روسيا القيصرية، ونحو خمسة وسبعين عاماً من الحكم الشيوعي فإن دور الحركات الصوفية في الحفاظ على الهوية الإسلامية ومقارعة الإلحاد كان ماثلاً للعيان بحيث لا ينكره أي باحث حرٍّ.

وقد قدمت آسيا الوسطى للعالم الإسلامي واحدة من أكبر الطرق الصوفية انتشاراً في العالم وهي الطريقة النقشبندية التي قامت على يد الشيخ محمد الأويسي البخاري الأوزبكستاني المشهور باسم: شاه نقشبند.

وفي التاريخ الإسلامي لم تكن هذه الشعوب هامشاً محيداً في الحضارة الإسلامية؛ بل أسهمت فيها بأكبر قدر من المعرفة والجهاد، حتى أصبحت فعلاً مثلاً يحتذى ودليلاً واضحاً على عالمية الإسلام.

فحسبك أن تتحدث في النشاط العلمي الذي قدَّمه (العجم) وهو الاصطلاح التاريخي الذي كان المسلمون يطلقونه على غير العرب، ليتبدى لك مدى المساهمة الحاضرة التي قدمتها تلك الشعوب لحركة الحضارة في القرون التي غرقت فيها أوربا في عصر الظلام.

ففي العلوم الإسلامية نبغ في التفسير شيخ المفسرين بالمأثور الإمام الطبري من طبرستان وموقعها اليوم في جنوب بحر قزوين، وشيخ المفسرين بالرأي الإمام الفخر الرازي من الري وموقعها اليوم في إيران، وشيخ المفسرين باللغة الإمام الخوارزمي من خوارزم وهي قصبة تضم بلدان عدَّة بين تركمانستان وأفغاستان وإيران.

وهؤلاء جميعاً كانوا من العجم، وليس إيرادي لأسمائهم على سبيل حصر المفسرين من العجم ولكني تخيرت المدارس الكبرى الثلاث في التفسير، وهؤلاء أئمتها بلا منازع.

وفي الحديث فإن الأئمة الستة إلا مسلماً كانوا من الأعاجم أيضاً، فالبخاري من خرتنك في بخارى حاضرة أوزبكستان، وأبو داوود سليمان بن الأشعث من سجستان وهي اليوم في جنوب إيران، والنسائي من نسا وهي مدينة في خراسان بإيران، والترمذي من ترمذ وهي قرب بلخ فيما وراء النهر، وابن ماجه القزويني من مدينة قزوين قرب بحر الخزر، وكذلك فإن الإمام مسلماً نشأ في نيسابور وتتلمذ على الإمام البخاري في بخارى وإن كان في منشَئِه عربياً قشيرياً، وفي العلوم المختلفة فإن ابن سينا الشيخ الرئيس كان من بخارى في أوزبكستان، والفارابي كان من فاراب في آسيا الوسطى، والبيروني إمام المؤرخين كان من أصل فارسي.

وباســـتعراض هذه الأسماء الســـتة فإنك تتصـــور مدى ما قدمه هؤلاء للثقافة العربية والمعارف الإسلامية المختلفة.

ولا يتضـــمن إيراد مثل هذه الحقائق اتهام الأمة العربية بالقصـــور العلمي؛ بل هو توكيد لحقيقة عالمية الإسـلام، واشـتراك الشـعوب الإسـلامية المختلفة في تأسـيس الحضـارة الإسـلامية، وهي مشـــاركة معقولة مفهومة إذا علمت أن المســـلمين من العرب يمثلون حقيقة ١/٥ العالم الإسلامي الكبير فقط.

ويمثل ذلك تأكيداً آخر على رســالة العرب العالمية التي نقلت الحضــارة الإســلامية إلى تلك الشـــعوب فحررتها وأطلقت مواهبها وأنشـــأت فيها عبقريات علمية وقيادات فكرية فذة ساهمت بشكل كبير في صناعة مجد الأمة الإسلامية الواحدة.

وهذا العطاء في الجانب الحضــاري من تلك الشــعوب لم يلغِ دورها في العطاء الجهادي أيضاً، فقد كانت شعوب آسيا الوسطى أول من تلقى الغزو المغولي وكافحه وصمد في وجهه، وكانوا عبر التاريخ الإسلامي يلقون من روسيا القيصرية ومن أباطرة الصين والحكومات المنغولية المختلفة أشدَّ العنت والأذى في سبيل صمودهم وثباتهم على بوابة العالم الإسلامي الشرقية.

وقد بدأت معاناة هذه الشـــعوب الإســـلامية يوم تفكك العالم الإســـلامي، وانهارت وحدته، وبالتحديد فإن آسـيا الوسـطى وكازاخسـتان بدأت منذ القرن السـادس عشـر تواجه الأطماع الروسـية نظراً لضـعف الدويلات المغولية التي كانت حينئذٍ تسـيطر على هذه المناطق

وتتولى حمايتها، فيما كانت مناطق القوقاز وما حولها حينئذٍ أحسن حالاً نظراً لقوة الدولة العثمانية التي كانت تشكل ضمانة متينة يحول دون الأطماع الروسية في هذه المناطق.

ولكن شباب الدولة العثمانية لم يطل، وسرعان ما باكرها الهرم، ومنذ القرن السابع عشر فقد أصبح العثمانيون عاجزين عن حماية ممالكهم المترامية الأطراف، فضلاً عن توفير الأمن لحلفائهم القوقازيين في وجه الأطماع الروسية القيصرية التي كانت أرمنستان وجورجيا تذكيها وتلهبها في سبيل سحق الوجود الإسلامي في القوقاز.

وهكذا وجدت القيادات الإسلامية المحلية نفسها موزعة في الولاء بين تركيا العثمانية وإيران الصفوية وروسيا القيصرية أحياناً، ولم تجد سبيلاً لتوحيد صفوفها تحت راية إسلامية واحدة، وذلك بسبب تفاوت الثقافات واللغات وطبيعة المناطق الجبلية القاسية وتباعد الأمصار.

والحديث عن هذه الشعوب الصابرة هو الحديث عن الجهاد العظيم الذي لا تكاد هذه الأمة تعرفه إلا في صدر المجد الأول، ذلك أن المحن تلاحقت على هذه الشعوب، كأنما أراد الله اختبار إيمانها، وضرب الأمثلة للمسلمين في الأرض حول مايلقاه أهل الحق من أهل الباطل سنة الله التي خلت في عباده، قوله سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكَبُوت :١ - ٣].

وأنقل لك هنا طرفاً من محاضرة للأستاذ العزيز مصطفى زنداقي الشيشاني وفيها يكشف لك جانباً من معاناة مسلمي الاتحاد السوفياتي عموماً ومسلمي الشيشان[٤] خاصة في القرون الثلاثة الأخيرة.

ففي منتصف القرن السادس عشر بدأت إمارة موسكو الروسية بالتوسع جنوباً وشرقاً فضمت إليها بالتدريج مناطق التتار، ثم اجتازوا الأورال وسيطروا على بقايا الدولة المغولية الثالثة فيما وراء الأورال، وبذلك ظهرت الإمبراطورية الروسية القيصرية التي اتبعت سياسة الدمج الديني، بإجبار السكان المسلمين على الارتداد عن دينهم بالقوة فهدمت المساجد وقضي على رجال الدين، ومنعت جميع أنواع أشكال العبادات الإسلامية والمعاملات الإسلامية، وفي القرن السابع عشر بدأ احتلال الروس لشمالي القوقاز وسهول قزاخستان وتابعوا سياسة اغتصاب الأراضي لأسكان القوزاق مكانهم، وسياسية الدمج الديني مما أدى إلى سلسلة من الثورات الدامية في تتاريا وبشكيريا وغيرها من الأقاليم، وكانت أكبر مقاومة لقيها الروس في عمليات الغزو الاستعماري هذه متركزة في شمالي القوقاز؛ إذ واجه الروس حروباً مقدسة حقيقة قادها الأئمة ورجال الدين، نذكر منها حرب الأمام منصور ١٧٨٣م والحركة المريدية حتى ١٨٥٦م بقيادة الأمام شامل وثورة الداغستان ١٨٧٧م وغيرها.

ـ لقد قاوم المسلمون الاحتلال الروسي وسلب الأراضي وتوطين القوزاق والدمج الديني والتنصير، بكل وسيلة لديهم، وحدثت معارك طاحنة اتبعت خلالها القوات الغازية سياسة الأرض المحروقة الخالية من السكان حيث هجرت مجموعات كبيرة من السكان إلى تركيا

[٤] ألقيت هذه الكلمة في حفل استقبال الدعاة الوافدين من القوقاز في جامع أبي النور صيف عام ١٩٩٣.

والأراضي العربية، وأبيد قسم كبير منهم، وأن معظم الجاليات الشاشانية الشركسية والداغستانية المستوطنة الآن في تركيا وسوريا والأردن والعراق ومصر وشمالي أفريقيا ليست سوى ضحية عمليات التهجير المذكورة، وإنني أمثل شخصياً الجيل الثالث من مجموعة خرجت من بلاد الشيشان عام ١٨٦٥م عقب انتهاء ثورة المريدين وأسر الإمام شامل، واستوطنت مدينة القنيطرة والجولان، وكان سبب الخروج: الاحتلال الروسي والقهر والتنصير فلجوؤا إلى الشام وبلاد الإسلام، وكانت كلمتهم الرئيسية أولها شام وآخرها شام، وشعارهم حفظ دينهم ودين آبائهم رحمهم الله وأثابهم عنا كل خير.

وبالرغم من الأهوال والمآسي التي آساها المهاجرون في الطريق والموت برداً وجوعاً ومرضاً، فقد وجدوا في البلاد الإسلامية صدراً رحباً استقبلهم وضمهم واعتبرهم من الرعايا والسكان الأصليين، وكل ذلك بفضل وروعة التعاليم الإسلامية والأخوة الإسلامية التي لا مثيل لها في أي مكان آخر، أما من بقي في هذه الشعوب فقد لاقى الأمرَّين على يد الحكَّام القدامى القيصريين والجدد الشيوعيين؛ إذ تعددت وسائل القهر والقتل الجماعي والتعذيب ومع ذلك حافظوا على دينهم، ولم تنطفئ شعلة الإيمان في قلوبهم، ولأذكر لكم طرفاً مما لاقاه هؤلاء في عصر الحضارة والنور والحرية، لتعلموا منها أن همجية القرون الوسطى والعصور الحجرية كانت أشكالاً بدائية لظلم الإنسان وجبروته أمام الأشكال الحديثة المتطورة المرتكزة على الوسائل التدميرية الجديدة.

لقد أحصت المصادر الروسية في منطقة الشيشان أنغوش أكثر من خمس وعشرين ثورة مسلحة كبيرة شاملة خلال قرنين من الزمن؛ أي: بمعدل ثورة كل ثمان سنوات، كانت كلها

بقيادة أئمة الصوفية ومريديهم، دفاعاً عن الوطن والدين والعقيدة، ذهب ضحيتها ثلاثة أرباع السكان، وهدمت أكثر القرى والمدن، وحرقت كل مظاهر الحياة النباتية والحيوانية، ولم يكن الوضع أيام الحكم الشيوعي بأفضل من أيام الحكم القيصري؛ بل كان أشد وأقصى؛ إذ هدمت المساجد أو حولت إلى مخازن للغلال أو زرائب للحيوانات، وأغلقت المدارس الدينية والمحاكم الشرعية، ومنعت جميع المظاهر الدينية من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية، وصودرت الكتب الدينية، وأصبح اقتناء القرآن الكريم جريمة كبيرة ثمنها النفي إلى سبيريا لعشر سنوات إن لم يكن الإعدام المباشر، وألغي الحرف العربي في الكتابة وحل محله الحرف اللاتيني ثم السلافي، وطمست المعالم التاريخية الإسلامية جميعها، وشوهت حوادث التاريخ، وانتشرت أفكار الإلحاد في المدارس ووسائل الإعلام والكتب والصحف، وأصبحت التحية بين الأفراد هي كلمة الكفر و الإلحاد، لكن شعلة الإيمان لم تنطفىء، وازدادت تأججاً في النفوس، وأحصي من المريدين عشرون ضعفاً من عدد الحزبين، والله غالب على أمره، ولما لم تُجْدِ كل هذه الإجراءات، ولم تنطفىء جذوة الإيمان والإسلام من النفوس، عمد الحكام الشيوعيون المستعمرون إلى عملية تهجير جماعي للشعب بكامله واعتقاله من جذوره ورميه في مجاهل سبيريا، في أشد الظروف الجوية قساوة، وبأبشع الوسائل اللاإنسانية ففي أول شباط ١٩٤٤م دخلت بلاد الشيشان والأنغوش فرق عسكرية من القوات الخاصة (الكومندوس) بحجة إجراء مناورات عسكرية، وتمركزت حول كل مدينة وقرية، وفي مساء ٢٢ شباط استُدعي السكان جميعاً دون استثناء للاحتفال بعيد الجيش الأحمر في الساحات والأماكن العامة، ثم أبلغوا الحكم عليهم بالنفي وأمهلوا ساعة واحدة للتحضير والخروج، وسمح لكل عائلة بحمل أمتعة بمقدار خمسين كغ فقط،

وتبع ذلك مشـــاهد صـــاخبة من عمليات قتل جماعي لكل من احتج أو رفع صـــوته، وتحرك هارباً، ثم سيقوا بسيارات شحن عسكرية إلى أقرب محطات للقطارات؛ إذ كدَّسوا في عربات نقل الماشـــية واقفين مزدحمين بحال لا يطاق، فمات كثيرون في العربات المكشـــوفة برداً، وفي المغلقة اختناقاً، ومن المشاهد المؤلمة أن تموت الفتيات والنساء المسلمات نتيجة حصر البول وتمزق المثانة حياء واستعفافاً.

ودامت الرحلة أسابيع خمسة باتجاه قرغيزيا وقازاخستان وشمال شرق سبيريا، حتى حدود منغوليا على مسافة تزيد من ٣٥٠٠ كم، وكانت تفرغ حمولات النفايات البشرية هذه في سهول سبيريا المقفرة المغطاة بالثلوج، وكانت حصيلة العمليات الإنسانية في القرن العشرين في بلد نصرة المستضعفين موت نصف السكان المبعدين الذين قُدِّر عددهم آنذاك بنصف مليون إنســـان، ليس لهم ذنب جنوه إلا أن يقولوا ربنا الله ويدينوا بالإســـلام، وكان الموت بالقتل رمياً بالرصاص، أو بالأمراض كالتيفوس، أو برداً وجوعاً وحرقاً.

وفي البلاد التي حطوا رحالهم فيها مُنِع الســـكان المحليون المســـلمون من التعامل معهم، وأوهموهم أن هؤلاء كفار من أكلة لحوم البشر، ولم يعرفوا أنهم مسلمون إلا بعد سنة أو أكثر من الزمن، فبدأت الأخوة الإســـلامية والتعاطف الديني يؤتيان ثمارهما، مما خفف من معاناتهم قليلاً، ولم تمر سنوات النفي بسلام؛ بل حدثت ثورات يائسة ومحاولات بطولية للتخلص من معسكرات الإبادة والسخرة كانت تنتهي بتصفية الآلاف بأشد الأسلحة فتكاً (أسلحة نارية وكيماوية وجرثومية) أما من بقي مختبِئاً أو عاجزاً عن الحركة في بلده في أثناء التهجير لمرضـــه أو شيخوخته، أو كان من الأطفال الشاردين فقد أُبيدو عن بكرة أبيهم بلا شفقة ولا رحمة.

ومن المآسي التي فاحت رائحتها، ووصلت إلى وسائل الإعلام يومذاك: جمع قرابة ألف من هؤلاء البؤساء في مزرعة كبيرة في منطقة نائية جبلية وإحراقهم وهم أحياء بصب البترول عليهم وإشعاله، استشهدوا وفاضت أرواحهم إلى بارئها، تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان في عصر النور والحرية والعلم، ومع ذلك فقد التجأ بعض الأبطال إلى الجبال والغابات وقاموا بشن غارات انتقامية أقضَّت مضاجع الظالمين المستعمرين مدة طويلة، هذا ومن جهة أخرى فعند إلغاء الجمهوريات التي هجر سكانها، فقد وزعت أراضيها بين الجمهوريات المجاورة، وغيرت أسماء المدن ونقل كثير من الروس للسكن في مكان المهجَّرين، ولم تسلم أي من المظاهر الحياتية من الأذى والتدمير، حتى المقابر فقد أزيلت ونقلت أحجار الشواهد بما عليها من آيات قرآنية واستخدمت لرصف الطرقات.

وأخيراً، وعندما تكشف للعالم القليل من الأعمال التي شملت قوميات عدَّة بقصد إبادتها، الشيشان والأنغوش والقرشاي والبلقار والكالموك وتتار القرم وألمان الفولغا، فقد اضطرت السلطات السوفيتية تحت وطأة الاحتجاجات العالمية للإفراج عن بعض المنفيين والسماح لمن بقي منهم بالعودة إلى وطنهم ١٩٥٧م.

وهكذا عاد الشيشان والأنغوش إلى بلادهم التي اقتطع منها نصف مساحتها وألحقت ببلاد الداغستان والأستين وجورجيا، ولا تزال عشرات القرى الكبرى في هذه المناطق محتلة، وأصحاب المساكن الشرعيون يعيشون قرب قراهم وبيوتهم في مساكن طينية متواضعة، وعندما أذن رب العالمين وانفرط عقد الظلم، وزهق الباطل، آثر الشيشان الاستقلال التام عن روسيا الاتحادية، وأقاموا حكومتهم الوطنية على الأسس والمبادىء الإسلامية، ووضعوا لبلدهم نشيداً

قومياً، تتكرر فيه شـــهادة لا إله إلا الله ســـبع مرات، كلازمة تذكر وراء كل بيت من أبيات القصـيدة الشـعرية في هذا النشـيد، ولكن هل تترك القوى الاسـتعمارية الغاشمة، والصـهيونية المتمثلة باليهود المحليين وأحلامهم بإعادة مجد دولة الخزر اليهودية القديمة إلى الوجود والقوى المضادة للإسلام؟ هل تترك كل هذه القوى جذوة الإيمان تضيء من جديد في النفوس؟

وبالفعل لم يطل هذا التسـاؤل وبادرت (روسـيا القيصـرية الجديدة) إلى تهديد الشـيشـان بمختلف الوسائل بغرض التخلي عن الاستقلال، والاندماج الكلي في المجتمع الروسي، وحينما اختار الشـعب الشـيشـاني المضـي قدماً في الاسـتقلال الذي أعلن في ١٩٩٠/١١/٢٧ قام الجيش الروسـي بارتكاب عمل إجرامي أحمق؛ إذ توجهت جحافل عظيمة من الجيش الروسـي في مطلع عام ١٩٩٥ وقامت بمهاجمة جمهورية الشـــيشـــان من البر والجو، مســـتخدمة أعتى وأعنف آلاتها الحربية المدمرة وهو تعامل همجي غير مبرر في وقت تحاول روسيا فيه التنصل من آساليب القهر الشيوعي التي كانت تتعامل بها مع الأقليات.

ومع أن ميزان القوى ليس فيه أدنى تقارب أو تكافؤ؛ إذ يواجه جيش الشـــيشـــان وهو جيش حديث التكوين لا يزيد أفراده عن ثلاثين ألف مقاتل، جيشاً روسيًّاً هائلاً كان يوصف قبل سـنين قليلة بأنه أقوى ترسـانة عسـكرية في العالم، فإن الشـيشـان بهروا العالم بصـمودهم، وكانت عاصـمتهم غروزني الواقعة في أرض سـهلية مكشـوفة مرشـحة بحسـب آراء المراقبين أن تسـقط في سـاعات قليلة على يد الجيش الروسـي ولكنها مع ذلك صـمدت نحو ثلاثة أشـهر، وأربكت القيادة الروسية إلى حدِّ أن الرئيس الروسي يلتسين اضطر إلى تغيير جنرالات الحرب

مرات عدة، والاستعانة بالقوات الخاصة حتى تمكن جيشه من دخول غروزني وهي مدينة أشباح.

ولكن سقوط غروزني ليس إلا بداية لمرحلة طويلة من الجهاد الإسلامي والوطني في جبال الشيشان العنيدة التي لم يطل شموخها من قبل قيصر ولا (أمين عام).

ولست أجهد نفسي بالتعريف بطبيعة هذا الشعب المحارب الجسور، الذي يأنف من الذل، ويشتاق إلى الموت، فقد أثَّرت أحداث القرون المتواصلة من الجهاد على أرضه في تكوين شخصيته، وسوف تقرأ فصولاً من قصيدة ابن دنوغونة في ذكر القنا والأسنة، والدماء والأشلاء، لم يبلغ أن نظمها شاعر من قبل، وهي ترسم صورة هذا الشعب المسلم وتعيد إلى الأذهان كلمة خالد سيف الله لصاحب الروم: لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

ولعلك تدرك هذه الحقيقة حينما تقرأ هذه الكلمات الملتهبة من النشيد الوطني لجمهورية الشيشان:

في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا
ومع زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائنا
لا إله إلا الله...
في أعشاش النسور، أرضعتنا أمهاتنا
ومنذ طفولتنا علَّمنا آباؤنا فنون الفروسية
لا إله إلا الله...
لهذه الأمة ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا
ووقفنا دائماً شجعاناً نلبي نداء الله والوطن
لا إله إلا الله...

نسور الجبال ألفتنا، فقاسمناها القمم الشماء والأجواء وطناً
واجتزنا بإباء وكبرياء التحديات والأهوال، وشعارنا دائماً...
لا إله إلا الله...

كرامتنا وكبرياؤنا لن نتخلى عنهما، ولن تلين قناة عبر السنين
حتى ولو تحولت جبال الصوان إلى رصاص ذائب!
لا إله إلا الله...
ومحال أن ندفن في هذا التراب إلا بكرامة وشرف
حتى ولو تحول هذا التراب الأسود إلى بارود متفجر!
لا إله إلا الله...
لن نستكين ولن نخضع لأحد إلا الله
فإنها إحدى الحسنين الشهادة أو النصر
لا إله إلا الله...
جراحنا تضمدها أمهاتنا وأخواتنا الصابرات
فتثير فينا مشاعر القوة والتحدي فننشد:
لا إله إلا الله...
إذا الجوع داهمنا سنأكل الجذور
وإذا اشتد بنا العطش نرتشف قطرات الندى
لا إله إلا الله...
وفي ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا
ونحن دائماً مطيعون لله وأوفياء للخلق والوطن
لا إله إلا الله[٥]

[٥] النشيد الوطني الشيشاني، تأليف الشاعر الشيشاني: إيدميروف أبو ذر، تلحين الموسيقا الشيشاني: علي دماييف، نقله إلى العربية: فاروق توبولات.

وبعد...

فإن المسألة الشيشانية ليست إلا فصلاً واحداً من فصول المأساة التي لم تكتمل بعد، فقد انفرط الحكم الشيوعي في هذه الأمصار مخلِّفاً وراءه ألف همٍّ وهمٍّ، وفي كل بلد إسلامي أزمات اقتصادية خانقة، وصراعات حدودية مقلقلة، ولا تزال آثار التجهيل الذي مورس على المتدينين في العلوم كافة، وفي المعرفة الإسلامية خاصة تحول دون قيام جمهوريات مستقلة قوية قادرة على تحمل تبعات المستقبل.

ويبلغ عدد المسلمين في مناطق الاتحاد السوفياتي نحو ٦٥ مليون مسلم، وهم يتزايدون بنسبة كبيرة تصل إلى ٣,٥ بالألف، ويتوقع أن يصل عددهم عام ٢٠٠٠م إلى نحو ٧٧ مليوناً، ويعيشون على رقعة واسعة من الأرض، غنية بخيراتها، تبلغ مساحتها ٤,٥ مليون كم^{٢}، وهو يساوي مساحة الدول العربية في آسيا مجتمعة، ومنها دولة نووية أساسية في العالم وهي كازاخستان، وهي إجمالاً غنية بثرواتها المعدنية قوية بإنتاج الصلب.

وإذا كان هذا الخطاب موجهاً للمسلمين عموماً فإنه موجه بالدرجة الأولى لمسلمي بلاد الشام؛ إذ تقع على عاتقهم في هذه المرحلة مهمة تحقيق هذا الانفتاح والتواصل مع تلك الشعوب ونشر المعارف الإسلامية وبث الدعاة في ربوع تلك البلاد.

ويحتم لزوم هذه المسؤولية على أهل الشام اعتبارات أربعة:

أولاً: جانب جغرافي

إن سـوريا والعراق أقرب البلدان العربية جغرافياً إلى هذه الجمهوريات، ولا شـك أن النهضـة التاريخية المطلوبة في تلك البلاد سـتتلازم بالتأكيد مع توجه إلى البلاد العربية؛ إذ إن عودة هذه الشعوب إلى ثقافتها الإسلاميـة مرتبطـة بتوجههـا إلى اللغـة العربيـة، وهـذه الأخيرة تلتمـس فـي عواصمهـا بالطـبع، وإذا كان العراق له في همِّه الداخلي شغل شاغل، فإن سوريا مؤهلة أكثر من أي مصر آخر للمساهمة بدور مصيري في صياغة هـذا التوجه الجـديد.

ثانياً: جانب تاريخي

فقد استقبلت بلاد الشام في التاريخ وجبات كثيرة من المهاجرين، الذين كانوا يفرون من المعارك المستعرة في تلك البلاد، وكانوا يختارون الشـام لأسباب اعتقادية، تتعلق بفضـائل الشـام المنصـوص عليها في الكتاب والسـنة، ويمكنك اليوم أن تلحظ أحياءً كاملة في المدن السـورية، وبلدات وقرى في أطرافها تسكنها جاليات إسلامية مهاجرة من آسيا الوسطى والقوقاز مثلاً: حي المهاجرين في دمشـق، وقرى الجولان السـوري، وكذلك أسماء الأسـر التي تشـير إلى أصـولها التاريخية، فتجد أسـرة: البخاري، والكرمانشـاهي، والداغسـتاني، والسـمرقندي، والطاشـكندي، والخوارزمي، والتركماني، والآذربيجاني، والأباظة (الأفخاز).

وهذه الحقيقة التاريخية تبعث المسؤولية في نفوس المقيمين من أبناء تلك البلاد في مختلف مواقعهم الاجتماعية والعلمية ليلتفتوا بمدٍّ يد الواجب لأرض آبائهم وأجدادهم فيصلوا ما انقطع ويرقؤوا ما نُكِئ ويُعمِّروا ما انهدم.

وهذا يُسهِّل غربة اللغة والثقافة؛ إذ يجد الوافدون من يحتضنهم ويرعاهم من إخوانهم وعشائرهم، ومن يرحل إليهم للدعوة والبلاغ من أصولهم وإخوانهم.

ثالثاً: الجانب الديني

وهو اعتبار مهم؛ إذ جاءت الأخبار الصحاح بفضل الشام ومنزلتها عند الله في آخر الزمان، ما روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق خير منازل المسلمين يؤمئذٍ**».

وروى الترمذي بإسناده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ يوماً نؤلف القرآن من الرقاع، فقال رسول الله: «**طوبى للشام**»، فقلت: لمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها**».

وهذه المعاني مستقرة في ذهينة تلك الشعوب، وهي تعرفها أكثر مما يعرفها أهل الشام؛ بل إن كلمة (شام) لا تكاد تجري على ألسنتهم إلا مقرونة بلقب التشريف (شام شريف)، وقد شهر التاريخ الإسلامي مئات الأسر التي تركت بلادها ويممت صوب الشام ابتغاء البركة المنصوص عليها في نصوص الكتاب والسنة كما ذكرنا.

ولا شك أن علاقة الأشواق هذه يجب توظيفها كما يتناسب مع مصالح تلك الشعوب في العلم والمعرفة والمواقف السياسية والمنافع الاقتصادية المتبادلة، وهي بلا ريب واحدة من الاعتبارات التي تحكم السياسة العامة في تلك البلاد.

رابعاً: جانب موضوعي

ويتمثل في توفر الخبرة والتجربة في المؤسسات الإسلامية في الشام لهذا الجانب من التواصل، فالمؤسسات العلمية والدعوية في الشام وعلى رأسها المجمع الإسلامي الكبير (جامع أبي النور) تؤدي دوراً ريادياً في هذا الجانب الذي آتى أكله في تخريج مئات الدعاة العاملين الذين راحوا يضربون في الأرض، ويؤدون رسالتهم في الدعوة إلى الله عز وجل في مناطق آسيا الوسطى وقفقاسيا، وأذكر مثلاً أنه تمَّ اليوم إحداث أحد عشر معهداً شرعياً في القوقاز وآسيا الوسطى، وذلك بالتنسيق والتعاون مع المجمع الإسلامي بدمشق.

قصيدة
الأزهار الرويَّة في المدائح النبوية

للشاعر الداغستاني
نجم الدين بن محمد بن دنوغونة

الأزهار الروية في المدائح النبوية

الفصل الأول

مَا شِمْتُ بَرْقاً سَـــــنى مِن أُفْقِ ذِي سَلَمِ ... إلا أَسَـــــلْتُ دُموعَ العَيْنِ كَـــــالدِّيَمِ[1]

ومـــا سَـــرَى بِيَ مِـــن سَلْعٍ نَسِيـــمُ صَبَا ... إلا أَثَارَ الجَـوَى في جِـيرَةِ الـعَـلَـمِ[2]

إِنْ أَنْسَـــهُم ذَكَّرْتِنِيـــــهِمُ بُرُوقُ دُجَى ... أوشَمْنَ لَولَا الهَوى العُذرِيُّ لم تُشَـــــــمِ[3]

هُم آنَسُـــوني، وأَنسُـــــــوِني سُـعادَ إذا ... آنسْـــــــتُ نارَهُمُ من جَانِبِ الإِضَـمِ[4]

كم ليلـةٍ بِـتُّ أَرعَى سَـــرْحَ أَنْجُمِهَـا! ... أَطوِي الأَضَـــالِعَ مِن وَجْـدٍ عَلى أَلَمِ[5]

حـــــــيرانَ يَحرِقُـني وَجْـدِي وتُـغْـرِقُـني ... عَينِي بِـدَمعٍ كَـهَـامِي الوذْقِ مُرْتَكِمِ[6]

أســـتقبِلُ الريحَ إذ تَسْـــري أُسَـــائِلُها ... هَـلْ عِـنـدَهـا خَبَرٌ مِن تِلكُمُ الخِيَمِ

مُســـتَنشِـــقَـاً أَرَجَـاً تَأْتِي بِـهِ عَبِقـاً ... كما استَعَارَتْ شَـذَاً من غَربِ ذِي سَلَمِ[7]

أَسْـــتَكْتِمُ القلـبَ أَســـرَاراً فَتَنْشُـــرُهَـا ... بَينَ الوُشَـــاةِ شُـــؤُونُ الأَدْمُعِ الرُّذَمِ[8]

والقَلـبُ قَـد كَـان قَبرَ السِّـــرِّ يكتُمُـهُ ... إلا الهـوى فـهـو سِـــرٌّ غَـيرُ مُـنـكَـتِـمِ

إني أُسِـــرُّ الهـوى وَالـدَّمـعُ يُـعـلِـنُـهُ ... وَلَونُ وَجهِي بِفحوى الحَـالِ لا الكَلِمِ

---

[1] شمت: نظرت، سنى: ظهر، ذي سلم: اسم شجر في المدينة المنورة، الديم: الأمطار.

[2] سلع: اسم جبل بالمدينة المنورة، ونسيم الصبا: اسم للرياح العليلة التي تهب من مشرق الشمس، وقال ابن سيرة: هي ريح تهبُّ إلى البيت الحرام، تحن إليه، والجمع بين المعنين ممكن، آثار الجوى: حرقة العشق وشدة الوجد، جيرة العلم: اسم موضع في المدينة المنورة.

[3] بروق: جمع برق، الدجى: الظلمة، أوشمن: لمعن، وأوشم البرق إذا لمع.

[4] الإضم: وادٍ يشق الحجاز، والمدينة المنورة فيه.

[5] بت أرعى سرح أنجمها: أي: أمضيت الليل مراقباً للنجوم السارحة، كناية عن طول السهر، أطوي الأضالع: كناية عن الصبر على ألم الجسد المعبر عنه بالأضالع، جمع ضلع.

[6] هامي الودق: المطر الغزير، هامي: اسم فاعل من هَمَا؛ أي: انهال، مرتكم: متجمع.

[7] الأرج: نفحة الريح الطيبة، عبقاً: العبق: هو ما يفوح من المرء إذا هو تطيب، عرب ذي سلم: أهل المدينة، والمراد هنا النبي ﷺ.

[8] شؤون الأدمع الرذم: الشؤون: عروق الدموع من الرأس إلى العين، والرذم السائل إذا قطر عمودياً.

مـا لِي وَكَتمي مَـا يُفشِـي سَـرَائِرَهُ ... سِـعَايةُ الأفضَـحَيْنِ الدَّمعِ والسَّـقَمِ[٩]
كِـلاهُمـا خَطَّ في خَـدَّيَّ لَو قَرَؤُوا ... قَـرَائِـنَ الـوَجْـدِ بالجَـادِيِّ والـعَـنَـمِ[١٠]
بـل عَبَّرَتْ عَبْرتي الحَمـرَاءُ عَنـهُ وَإنْ ... غَيَّرْتُ صُـفْرَةَ وَجهي صِـبغَـةً بِـدَمِ[١١]

مـا أَعـذَبَ العِشـقَ لَولَاهُ يَعَـذِّبُنِي! ... وَمَـا أُحَيلَا هوى أهـلِ الحمى بِفَمِي![١٢]
لـكنَّ أوَّلَـهُ حُـلـوٌ وآخـرُهُ ... مـرُّ المـذاقِ مُزيـلٌ لـذَّةَ النِّعَمِ
هَـل تَـعـلَـمُـونَ لِـدَاءِ الحُـبِّ أَدوِيَـةً ... فَالحُبُّ أَهـدَمُ للَّـذَّاتِ مِن أَلَمِ؟![١٣]
لـو كُنـتُ أَعـلَمُ أَنَّ الحُـبَّ يُـهْـلِـكُـني ... عـالجْـتُ أَوَّلَ هَيْمِ القَـلـبِ بالهِمَمِ[١٤]
لا حبَّـذا الحُـبُّ يُبْقي كـالخيـالِ فتىً ... قدْ طالما خِيْلَ قَبلَ العشـقِ ذا وَرَمِ![١٥]
يُعِيـدُ كُـلَّ سَمِينِ الجِسـمِ أَنْحَـلَ مِن ... خَـطِّ المِهنـدسِ في القِرطَـاسِ بالقَـلَمِ
يَكَادُ يَخـفَى عَلى الأَبصَـارِ صُـورَتُهُ ... لولا التـأوُّهُ لم يُحْسَـسْ وَلَم يُـهَـمِ
يَبكِي عَلَى طَلَـلٍ لم يَبقَ منـه سِـوَى ... رَسـمٍ تَغيَّرَ بِالأَريَاحِ والـدِّيَـمِ[١٦]
يَا عَاذِلِي في الهوَى إن كُنتَ تُنْصِفُ لِـي ... تِـهْ تارةً بالهـوى مِـثـلِـي وَهِـمْ وَلُمْ[١٧]
فَـكَـم أَطَـالَ لِي الـعُـذَّالَ وَعْـظَـهُـمُ ... والكـلُّ مـا بين مَعصـيٍّ و مُتَّهَمِ!
بَل كُلُّ نُصحٍ نَهَى العُشَّـاقَ فَهُو سُدَىً ... كَالرِّيحِ عَنهُ صـماخُ الصَّـبِّ في صَـمَمِ[١٨]

---

[٩] سعاية الأفضحين: أي: إنَّ السرَّ المكتوم في قلبي يفضحه سعي الدمع في وجهي، والسقم في جسدي، وعبر من السقم والدمع بوصف الأفضحين، من الفضيحة؛ لأن كلاً منهما بفضح المحب، ويكشف عن شدة وجده.

[١٠] الجادي: اسم فاعل من الجَود، وهو المطر الغزير، والعنم نوع من الشجر له نُوْرٌ أحمر، يضرب به المثل في امتلائه بالماء.

[١١] عبرتي: دمعتي.

[١٢] أهل الحمى: أهل الحرم الشريف، والمراد النبي ﷺ.

[١٣] أهدم: أكثر إتلافاً، وهدم الشيء: غيَّبه جميعاً.

[١٤] هيم القلب: الهيم من الهيام، وهو فرط العشق، والمعنى: ضياع القلب وجنونه من شدة العشق.

[١٥] ذا ورم: كناية عن الصحة والعافية، يبقى كالخيال: كناية عن السقم من شدة الوجد.

[١٦] رسم: ما يتبقى من الطلل بعد جريان الريح عليه، الديم: المطجر الذي يدوم بسكون، لا رعد ولا برق فيه.

[١٧] ته: فعل أمر من تاه.

[١٨] صماخ الصب: سمع المحب.

وَاهَـاً على معهـدٍ كـانـت كَواعِبُـهُ ... يُطْرِبْنَـــــني بِأَغَـــانِيهنَّ والنَّـــــغَمِ![19]
إذْ لُمَّتي كَجَنَاحِ النَّســـــــــرِ وَارِسَـــةٌ ... وَنُورُ وَجهِي كَنُورِ البَـدرِ في الظُّلَمِ[20]
ولـلشَّـــبِـيـبَـةِ إذ أَزهُـو بِهَـا مَـرَحٌ ... يَسِـــلُّ قَـلبِيَ قَـهـرَاً مِـن يَـدِ النَّـدَمِ
أَطِيبْ بها مَجْمَعَ اللَّذَّاتِ أَجْمَـــــــعَ لَو ... لَا شَيبَـــتِي سَلَبَتْـــني لـــــذَّةَ النُّعمِ!
مَـا كَـادَ تُنْشِـــطُنِي الأيَّامُ مُـذْ نَشَـــرتْ ... بالشَّـــيبِ في شَـــعرِ رأســـي رَايةَ الهَرَمِ
وَطَـارَ عَـنِّي طَـيْـفٌ قَـد هَمَـمتُ بِأَن ... أَصـــطَـادَ شـــارِدَهُ في شـــبكـةِ الحُلُمِ
وباحَـتِ الرِّيـحُ سِـــرَّاً بـلَـغْتُـهُ عـلى ... بريـدهـا من شَـــذَا حَيِّيٍّ على العلَمِ

الفصل الثاني

فَهَـــيَّجَتـــــني أَشـــــــواقِي إلى مِدَحٍ ... تُـنـهَـى إلى مَـنْ إلـيـهِ مُـنتَـهَـى الـكَـرَمِ
أَزِيـــرُهَـــــا هَاشِميـــــاً في أسرَّتِـــــهِ ... نورٌ... ومن راحيته منبعُ النِعَـــــــــمِ[21]
سِـــرُّ السَّـــرَارَةِ، لُبُّ اللُّبِّ مِن مُضَـــرٍ ... لـولاهُ لم يَخْـرُجِ الـكَـونَانِ مِـن عَـدَمِ[22]
يَمحُو الـدُّجَى وَيُضِـــيءُ العَـالمِينَ بِمَـا ... أشْـــرَقْنَ مِن سُـــرُجِ الأَحكَـامِ والحِكَمِ
هـو الـرَّسُـــولُ الَّـذي لَـولَا مَكَـانَتُـه ... لَكَـانَ كَنزَاً خَفيَّـاً بَارِىءَ النِّسَـــمِ[23]
مُحَـمَّـدٌ تَاجُ هـذا الـكَـونِ جَـوهَـرَةٌ ... جَلَّـت وَلَـو قُوبِلَـتْ بِالخَلقِ عَن قِيَمِ
حُلوُ السَّـــجيَّـةِ، مَيمُونُ النَّقِيبَـةِ، لَا ... تُخْشَـــى بَـوادِرُه بِالـبَـطـشِ وَالـنِّـقَـمِ[24]
رأسُ الـعَـوالِمِ لَـولَا كَـانَ لانـعَـطَـلَـتْ ... وهـنَّ فَـوضَـــى بِـلا رَأسٍ ولا عَـلَـمِ[25]

[19] المعهد: اسم للمكان المعهود بالحديث عنه، كواعبه: جمع كاعب، وهي الحسناء إذا نهد ثديها.

[20] لمتي: اللمة: هي أجمة الشعر، مقدمة الشعر مما يلي الجبهة، أراد بذلك الإشارة إلى شقرة شعره في فترة الشباب، وهو معنى لم يسبق إليه، وارسة: من الورس، وهو نبات أصفر يتخذ للصباغ، ويقال للصخرة إذا كثر عليها الطحلب فاخضرت: شجرة وارسة، والكناية هنا على الحيوية والنشاط.

[21] أزيرها: من الزور، وهو السير الشديد مع الشوق، والمراد أنني أقصد بمديحي بلوغ روضة الهاشمي ﷺ.

في أسرَّته نور: في ملامح وجهه، ويقال: أشرقت أسارير وجهه، يردي ملامح وجهه.

[22] السرارة: مجتمع الأسرار.

[23] أراد الشاعر الإشارة إلى حديث: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت محمداً فبه عرفت، وحديث: لولاك لولاك ماخلقت الأفلاك.

[24] ميمون: مُبارك، النقيبة: الطويّة: أي الخلق الخفيّ الذي يحتاج التعرف عليه إلى نقب وبحث.

[25] لانعطلت: أي لتعطلت العوالم. علم: راية.

مَـنْ نُـورُهُ سِـــرُّ خَـلـقِ اللهِ أَوجَـدَهُ ... مِـنْ نـورِهِ قَـبـلَ خَـلـقِ الَّـلـوحِ وَالـقَـلَـمِ
كَـأَنَّمَـا سِـــرُّهُ رُوحُ الـعُـوالِمِ مُـذْ ... فِيهَـا سَـــرَى سَـــرَيانَ النُّورِ فِي الظُّلَمِ
أَقضَـــى الـعِـبـادِ لِحَـقِّ اللهِ أَعـرَفُـهُـم ... بـه وأرســـخـهـم فِي الـعـلـمِ والحـكَـمِ
نـــورٌ بـــدا وهَـــيُـــولَاه وَصُـــــورَتُـــهُ ... مِن عُنصـــرُ الأَحمَدَينِ الحُسْـــن والكَرمِ[٢٦]
أَعـيَـا لِـدِقَّـتِـهِ مَـعـنَى حَـقِـيـقَـتِـهِ ... عن وصـــفِهَا فُصَـــحَاءَ العُربِ والعَجَمِ
جَلَّـــت عن الوصفِ أَوصَافٌ لهُ عَظُمَتْ ... عـنْ أنْ يُـبَـيِّـنَـهـا ذُو الـقَـولِ والـقَـلَـمِ
لم تُبصِـــرِ العَيْنُ مَعنَـاهُ وَلَو بَصُـــرَتْ ... عَـينَ الحَـقِـيـقَـةِ مِـنـهُ الـعَـينُ لَمْ تَـنَـمِ
وإِنَّمَـــا أَدْرَكَ الـــرَّاؤُون صُـــــورَتَـــهُ ... لا كُـنـهَـهُ فـهـو عـنْـهُـمْ أيُّ مُـنـكَـتـمِ[٢٧]
لَـو أَدرَكُـوا كُـنْـهَ مَـعـنَـاهُ إذا نَـظَـرُوا ... لمـا نَسُـــوه وَلَو فِي سَـــاعَـةِ الحُلُمِ

حَـازَ الكَـمَـالَاتِ طَـرَّاً غَـيرَ مُشـــتَرَكٍ ... فِيهـا، وَشُـــمَّ المِعَـالِي غَيرَ مُزدَحَمِ[٢٨]
وَخَلَّصَ الكُفرَ مِمَّـا قَـد أَصَـــرَّ عَلَى ... تَعظِيمِـهِ دُونَ رَبِّ النَّـاسِ مِن صَـــنَمِ
والشَّـــرعَ شـــرَّفَـهُ، والشِّـــرْكَ هَـوَّنَـهُ ... بِمَشْـــرَفِيٍّ عَـلَـى الأَروَاحِ مُحـتَـكَـمِ[٢٩]
دَعَـى إِلى اللهِ مَـنْ لم تَأتِهِـم نُـذُرٌ ... بِـكُـلِّ مَـوْعِـظَـةٍ حَسـنَـاءَ والحِـكَـمِ
ومَـنْ أبَـوْا أَحـكَـمَ الأَقـوَالِ سَـــلَّ لَهُمْ ... سَـــيْفَـاً يُـنَـفِّـذُ حُكَمَ القَولِ والقَلَمِ
حـتَّى مَحَـا دِينُـهُ الأَديَانَ يَنسَـــخُـهَـا ... كَـأَنَّـه الصُّـــبحُ يَمحُو غَيْهَـبَ الظُّلَمِ[٣٠]
وَعَـمَّ اليُـمْـنَ يُمنَـاه وقـد بَسَـــطـت ... فيـهـم أمَـانَـيْن مـن فَـقْـرٍ ومـن نِـقَـمِ[٣١]

[٢٦] هيولاه من الهيولى وهو أصل الشيء.
[٢٧] كنهه: حقيقته. أيّ منكتم: بالغ الكتمان.
[٢٨] شمّ المعالي: ارتفع إليها، أي بلغها بأنفه.
[٢٩] المشرفيّ: المشارف قرى من أرض اليمن تنسب إليها السيوف المشرفية المعروفة بصفائها ومضائها.
[٣٠] غيهب: شدة سواد الليل.
[٣١] أمانين: مثنى أمان.

الفصل الثالث

أبَانَ مَولِدُهُ عَنْ سَعدِ طَالِعِهِ ... مُذْ ذُرَّ كَوكَبُه من ضِئضِيءِ الكَرَمِ[٣٢]

مَا زَالَ مُذْ وَلَدَتْهُ الأُمُّ متَّصِفَاً ... باليُمْنِ يُدعَى أَمِينَاً غَيرَ مُتَّهَمِ

وَزَادَهُ يُتْمُهُ بَينَ الوَرَى شَرَفَاً ... كَمَا يَزِيدُ غَلَاءُ الدُّرِّ باليُتمِ

بُشرَى لابنَةِ وَهَبٍ أَنَّها وُهِبَتْ ... دونَ العَوالِمِ كَنزاً غَالِيَ القِيَمِ

لم تُبْقِ في حيِّزِ الإمكَانِ أَكرَمَ مِنْ ... طَهَ ابنِهَا خَيرِ مَخلُوقٍ مِن العَدَمِ

يا فَخرَها حَمَلتْ مَنْ قَطُّ مَا حَمَلتْ ... بناتُ حواءَ مَن يَحكِيهِ في الشِّيَمِ[٣٣]

إذ لم تَلِدْ صِنْوَهُ حُبلَى وَمَا حَبِلَتْ ... أُنثَى بِمثلِ ابنها في الفَضلِ والكَرَمِ

شَحَّت بِمُشبِهِهِ أَيدِي الزَّمَانِ كَمَا ... عن كفؤِهِ رَحْمُ هَذَا الكَونِ ذُو عُقُمِ

خَرَّتْ لِهَيبَتِهِ الأَوثَانُ وَانْهَمَلَتْ ... عيونُ عَابِدِهَا بِالأَدمُعِ السُّجُمِ[٣٤]

والفُرسُ إذ عَايَنُوا الإيوَانَ مُرتَجِسَاً ... تفرَّسُوا بِاستِلَابِ المُلكِ وَالنِّعَمِ[٣٥]

وَأَوجَسُوا الخَوفَ وَالنِّيرَانُ خَامِدَةٌ ... وَأَيقَنُوا قُربَ يَومِ الوَيلِ وَالنِّقَمِ

وَرَاعَهُم يَغتَةً غَورُ البُحَيرةِ إذ ... لَمْ تُلْفِ مِنهَا وَلَو مِقدَارَ مِلءَ فَمِ[٣٦]

وَالجِنُّ تَعزِفُ بِالأَشعَارِ مُشْعِرَةً ... بأَنَّ دِينَ ذَوي الأوثان لم يَدُمِ

وقَبلَهَا عَلَّمَ الكُهَّانُ مُعْلِنَةً ... بقربِ مولِدِ خَيرِ العُرْبِ والعَجَمِ[٣٧]

وَقَد تَكَرَّرَ في جَوِّ السَّمَاءِ لَهُم ... مَعَارِكُ الحَربِ بَينَ الجِينِ والرُّجُمِ[٣٨]

---

[٣٢] الطالع: الحظ، ذرّ: بدا وظهر، الضئضئ: الأصل والجوهر.

[٣٣] يحكيه: يشبهه.

[٣٤] السجم: الغزيرة.

[٣٥] مرتجساً: من الرجس، وهو الدنس، تفرسوا: تنبؤ.

[٣٦] غور البحيرة: أي: جفافها، والمقصود بحيرة ساوة لما روي أنها جفت يوم مولد النبي ﷺ.

[٣٧] علَّم الكهَّان: أي: أشاركت الكهان إلى علاماته.

[٣٨] الجين: الشهب، الرجم: إشارة إلى الشهب التي ترجم الشياطين، وقد ورد أن الجن كانت تلتمس العلم في السماء، فلما ولد النبي ﷺ حبسوا عن دخول السماء بالشهب والرجوم.

وكُبكِبَتْ في طَريقِ الوَحيِّ مَوكِبُهم ... مَا بَينَ مُخترِقٍ مِنهُم وَمُنْهَزِمِ[٣٩]
وَأَصبَحَت وَهي لَا تَدري لِما حُرِمَتْ ... عَن استِرَاقِ غُيوبِ اللَّوحِ وَالقَلَمِ[٤٠]
هِيَ القَرَائِنُ تُبدِي الحَقَّ صَامِتَةً ... وَليسَ يَكذِبُ ذَاتَ الصَّمتِ وَالبُكَمِ
فَأَلقِ سَمعَكَ لِلأَحوَالِ إِنْ نِطَقَتْ ... فَالحَالُ أَشرَحُ أَحيَاناً مِنَ الكَلِمِ
هَلَّا إِذَا مَا عَمُوا عَمَّا رَأَوا سمعوا ... كلا، فكلُّ صِمَاخِ الشِّركِ ذو صَمَمِ

الفصل الرابع

أَعظِمْ بِخُلُقِ نَبِيّ لم يَدَعْ أثَراً ... لِلبَحرِ مِن كَرَمٍ وَالدَّهرِ مِن هِمَمِ!
هو الحَكِيمُ الَّذي لُقمَانُ يَغرَقُ في ... قُطَيرَةٍ مِن بِحَارِ فِيهِ مِن حِكَمِ
وخَاتمُ الرُّسُلِ خَيرُ الخَلقِ أَفضَلُ مَن ... مَشَى عَلَى مَتَنِ هَذِي الأَرضِ بالقَدَمِ
مَهمَا دَعوناهُ لِلجُلَّى جَلَا كُرَباً ... وجَاءَنا نصرُهُ سُرعَانَ مِن أَمَمِ[٤١]
بَدَا فَقِيراً فَأَغنَاهُ الإِلَهُ كَمَا ... آوى وَأَدَّبَهُ بِالعِلمِ في اليُتْمِ
مَازَالَ حَيَّاً وَحَوَّاءُ وَآدَمُ فِي ... طِينَيهِمَا غَيرَ مَوجُودَينِ مِنْ عَدَمِ
حَتَّى غَدَا أَطْهَرُ الأَصلَابِ تُودِعُهُ ... مِن كُلِّ ذَاتِ عَفَافٍ أَطيَبَ الرَّحِمِ
وَلَم يَزَلْ نُورُهُ المِعرُوفُ مُنْقَلِباً ... في السُّجَّدِ الغُرِّ مِن أَجدَادِهِ القُدُمِ
حَتَّى غَدَا وَاضِحَاً في وَجهِ آمِنَةٍ ... كغُرَّةِ الصُّبح يَنفِي شَكَّ مُتَّهِمِ[٤٢]

يا يومَ مولدِ خيرِ الخلق كَمْ ظهرتْ ... بهِ خوارقُ مِنْ معنى ومِنْ كَلِمِ
أَهَلَّ تُعرَفُ بالسِّيما سِيَادَتهُ ... وتمَّ كالبدرِ مَطبوعاً على الكَرَمِ[٤٣]
فجاءَهُ في حرَّاء الوحيُ، يقرَؤُهُ ... باسم الذي عَلَّمَ الإنسانَ بالقَلَمِ[٤٤]
وكانَ قَبلَ التحلِّي بالرِّسالَةِ قد ... يُوحَى إليهِ إذا ما نامَ بالحِكَمِ

---

[٣٩] وكبكبت: الكبكبة: الرمي في الهوَّة.

[٤٠] لما حرمت: هي لم الإستفهامية، ومدها في متن القصيد قبيح، وكان حقه أن يقول: لم احتسبت.

[٤١] أَمَم: المكان القريب.

[٤٢] غرة الصبح: إشراقة الفجر الأولى.

[٤٣] أهلَّ: ظهر وأشرق. السيما: العلامة.

[٤٤] (في حراء): أصلها في المخطوطة (بالحراء).

فـكـلُّ رؤياه وحـيٌّ لا يشـــوبُ بـه ... شـوائبُ الشَّـكِّ والأضـغاثِ من حُلُمِ[٤٥]
يختصُّ بالعينِ منـهُ النومُ يُغمِضُـــهـا ... وَقَلبُـهُ أَبَـــدَاً يَـقظَـــانُ لَـــمْ يَنَـــمِ[٤٦]

هُـو الحَبـيـبُ الَّـذِي يَـرجُـوهُ مُختَـبِـطٌ ... أَضَـــاقَ ذَاتَ يَدَيهِ ضُـــغطَةُ العُدُمِ[٤٧]
سَمْحُ اليَـدَينِ عَلى العِلَّات جَـادَ كَـأَنْ ... في كَـفِّـهِ كِـيـمِـيَـاءُ الجُـودِ وَالـكَـرَمِ[٤٨]
كِـلتَـا يَـدَيـهِ غِـيَـاثٌ تُـغنِـيَـانِ لَهُم ... عَـن نَائِـلِ الأَجوَدَينِ البَحرِ وَالـدِّيَمِ[٤٩]
مَـا لِـلـمُـكَـلِّـفِ كَـفَّـيْـهِ مَـكَـارِمُـهُ ... وَمَـا التَّخَلُّقُ مِثـلُ الخُلْقِ وَالشِّـــيَمِ[٥٠]
وَالسُّـــحُـبُ إنْ أَمطَرَتْ غَيثَـاً فَرَاحَتُـهُ ... فِي المِـحْـلِ مُمْـطِـرَةُ الآَلَاءِ وَالـنِّـعَـمِ[٥١]
رَاحٌ تَرَى البَـذْلَ دَيْنَـاً اِسـتَـدَانَ بِـه ... أَو تَســتَـدِيْنُ بِـدِينِ الكَعـبِ والهَرَمِ
وَالـبَـحـرُ إن أَخـرَجُـوا مِـن قَـعْـرِهِ دُرَرَاً ... فَـقَـلـبُـهُ مَخْـرَجُ الأَحـكَـامِ وَالحِـكَـمِ

يَا خَـيرَ مَـنْ أَمَّـهُ فِي المِـحْـلِ ذُو أَمَـلٍ ... أَوهَى عُرَى العَيشِ مِنـهُ عَضَّـــةُ الإِزَمِ[٥٢]
وَعَـادَ مِـنْ عِـنـدِهِ جَـذْلَانَ أَوْقَـرَهُ ... جُـوْدَاً وَبِـرَّاً أَبَـرُّ الـنَّـاسِ بِالـكَـرَمِ[٥٣]
تَـلَاطَـمَـتْ رَاحَـتَـاهُ بِالـنَّـوَالِ فَـهَـلْ ... سَمِعْـتَ يَا صَـــاحِ بَحْرَاً غَيرَ مُلتَطِمِ

---

[٤٥] لا يشوب: به لا يخالطه.

[٤٦] إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا».

[٤٧] المختبط: طالب النوال، السائل من غير قرابة أو رحم أو صداقة أو يد سابقة، كناية عن عدم استحقاقه للنوال لولا جود المعطي وكرمه، الضُّغطة: اصطلاح يطلق على المستدين بماطل في أداء دينه حتى يحط عنه الدائن شيئاً، العُدُم: جمع عديم وهو المفلس، فيكون المعنى هنا أن الشاعر ضاقت ذات يده من كثرة كرمه ورحمته بالمعدومين، وهو هنا يمدح نفسه بحسب الظاهر، ولكن المراد: إنما يقصد الكرام الكرام، فإذا كان أهل الجود والبذل قد وقفوا بباب النبي ﷺ فمعنى ذلك أنه ﷺ رئيس الأجواد، وأمير الأسخياء.

[٤٨] كيمياء الجود: منبع الجود.

[٤٩] نائل الأجودين: ما يناله السائل من أكبر مصدرين للجود وهما البحر والمطر.

[٥٠] أراد أن الكف التي تنفق تكلفاً لن تبلغ المكارم، التخلق: تكلُّف الأخلاق، الخُلْق: هو المكارم والأخلاق المطبوعة في النفس أصلاً.

[٥١] المحل: القحط، الآلاء: النعم.

[٥٢] أمَّه: قصده، عرى العيش: سبل العيش، عضة الإزم: العضة الداهية والمصيبة، والإزم جمع أزمة وهي سنةُ القحط.

[٥٣] أوقره: أثقل عليه حمله بما منحه من كرمه.

مَـا شَـــامَ بَرقَـكَ يَومَ القَحْطِ ذُو ظَمَـأٍ ... إلا وَرَوَّيْتَـهُ بِالسَّـــلْسَـــلِ الشَّـــبِمِ[٥٤]

وَإن أَتَاكَ مُسِـــيءُ الـنَّـاسِ مُـعـتَـذِراً ... هـزَزْتَ لِـلعَفْـوِ عَـطفِي غَـيرِ مُـنتَقِـمِ[٥٥]

تَـعْـفُـو وَتَصـــفَـحُ عَـن عِـزٍّ وَمَـقـدِرَةٍ ... وَلَا تُـقَـابِـلُ مَـنْ قَـد تَابَ بِالـنِّـقَـمِ

تَـلـقَـاهُ هَشَّـــاً بِـوَجْـهٍ زَادَ رَوْنَـقُـهُ ... بِشْـــرٌ وعنْ مِثلِ سِمْطِ الدُّرِّ مُبتَسِـــمِ[٥٦]

يَـكَـادُ يُخـجِـلُ بَـدراً مِـن تَهـلُّـلِـهِ ... إِذَا رَأَى خَـجَـلاً فِي خَـدِّ مُجـتَرِمِ[٥٧]

وَمَـا تَـطَـرَّقَ يَـومَـاً مَـا يُـكَـدِّرُهُ ... إلا وَصَـــفَّـاهُ منـه صَـــفْوَةُ الشِّـــيَمِ[٥٨]

لا يُنقِصُ الغَيظُ حُســـنَـاً مِن أَسِـــرَّتِـهِ ... وَالغَيظُ مَـا كَـادَ يُبقِي بُهجَـةَ الوَجِمِ[٥٩]

لَم يُضـــمِرِ الغَدرَ قَلبٌ مِنهُ رَقَّ وَلَـــــم ... يَطوِ الضُـــلُوعَ عَلى غِـلٍّ وَلَا أَضَـــمِ[٦٠]

وَاســـتوعَبَ الفَضـــلَ لَا تُبقِي مَكَارِمُهُ ... لِسَـــائِرِ النَّـاسِ إِلا السُّـــؤرَ مِنْ كَرَمِ[٦١]

فَـدَاؤُهُ مُـقشَـــعِرٌّ إذ تُـقَـابِـــلُـهُ ... بِكُـلِّ فَـظٍّ غَـلِيظِ الـقَـلـبِ مُـنتَقِـمِ[٦٢]

لَـهُ مَخَـائِـلُ جُـودٍ لَا تَخُـونُ فَـمَـا ... سِـــوى مُحَيَّـاهُ عِندَ المِحَلِ لا تُشِـــمِ[٦٣]

وَثِـقْ بِـنَـائِـلِـهِ مَـهـمَـا تَـبَسَّـــمَ لَا ... كَـخُلَّـبِ البَرْقِ قَـد يَخلُو عَن الـدِّيَمِ[٦٤]

أغـرُّ أَبـيَـضُ يُســـتَسـقَـى بِـدَعـوَتِـهِ ... ويُسْـــتَـزَالُ بَلَاءُ القَـحطِ فِي القُـحَـمِ[٦٥]

---

[٥٤] شام برقك: قصد طلعتك البارقة، السلسل: الماء العذب، الشبم: البارد.

[٥٥] هز عطفيه: كنايةٌ عن ترفُّعِ القادر، والعطفان هم الثوب والسيف، وقيل: بل طرفي العنق حيث يلقى الرداء.

[٥٦] سمط الدر: عقد الدر الدقيق.

[٥٧] أراد أنه ﷺ دائم البشر متهلل الوجه، وأكثر ما يكون بشره حين يلقى المجرم إذا جاءه معتذراً خجلاً.

[٥٨] صفوةُ الشيم: خيار الأخلاق الفاضلة.

[٥٩] أراد أن الغضب الذي يُذهِب بهجة الوجه من شدة الوجوم والعبوس، هذا الغضب لا يمكن أن ينقص بهاء وجه الحبيب؛ لأنه لايغضب أصلاً.

[٦٠] أضم: الأضم الحقد والحسد.

[٦١] السؤر: ما يبقى في الكأس من أثر الشارب.

[٦٢] فداؤه مقشعر: لم يظهر لي مراد الشاعر، ولعلَّ قصده أن عفوه ﷺ عن المجرمين تقشعر له جلود المؤمنين، ويناسب ذلك تمام النص: إذ تقابله بكلِّ فظ غليظ.

[٦٣] مخائل الجود: علائم الجود، محياه: وجهه، المحل: القحط، لا تشم: لا تقصد.

[٦٤] نائله: عطاياه، ومهما: بمعنى كلما، أرد أن تبسمه ﷺ إشارة إلأى وجود خير مؤكد، ليس كالبرق الكاذب الذي ربما يبرق ولا يكون فيه مطر.

[٦٥] يستزال به القحط، يطلب به زوال القحط، والقحم: جمع قحمة، وهي السنة الشديدة.

الفصل الخامس

بِالُمـؤمِـنـينَ رَؤُوفٌ خَـافِـضٌ لَهُـمُ ... مِنـهُ جَنَـاحَينِ مِن حُلْمٍ وَمِن كَرَمِ
حَتَّى لَقَـد خِيْـلَ كُـلُّ المؤمِنِينَ لَـهُ ... مِـنْ فَـرطِ رَحمَتِـهِ فِيـهِم ذَوي رَحِـمِ
كَم لِي بِخَيرِ الوَرَى مَهمَا اسـتَجَرتُ بِهِ ... مَنْجَـاً مِن الأَنكَـدَينِ الـذُّلِّ وَالعَـدَمِ
وَمَـا رَكَـنـتُ إِلَـيـهِ يَـومَ مَـفـزَعَـةٍ ... إِلَا أَمِنـتُ كَـأَمنِ الصَّـيـدِ فِي الحَرَمِ
مَـا ضَـامَنِي زَمَنِي يَومَـاً وَلُـذْتُ بِـهِ ... إِلا انـثَـنَى زَمِـنَـاً عَـنِي وَلَم أُضَـمِ[٦٦]
وَكُـلَّـمَـا احـدَودَقَـتْ بِي بِالـظُّبى إِزَمٌ ... هَزَزتُ مِن نَصـرِهِ نَصْـلَاً على الإِزَمِ[٦٧]
وَمَـا مَـدَدنَا إِلى جَـدوَاه أَيـديَـنَـا ... إِلا وَجَـدنَاهُ أَنـدَى الـرَّاحِ مِـن دِيَمِ[٦٨]
يُبَشِّـرُ المجتَدِي بِالسَّـيبِ مَبْسِـمُهُ ... كَالبَرقِ يَسـبِقُ صَـوبَ العَارِضِ العَرِمِ[٦٩]
إِنْ يَـبتَسِـم أَوْ يَـفُـهْ أَبـدَى لِآلِيـهِ ... لِلعَينِ وَالسَّـمعِ مِن ثَغرٍ وَمِن كَلِمِ
مَنْ ذَا الَّذِي لَـم يَثِق بِالنَّجعِ مِنـهُ وَلَـم ... يَبلُغ إِذَا أَمَّـهُ الحَـاجَـاتِ مِن أَمَمِ[٧٠]
ذُو سَـاحَـةٍ لم يَزَلْ لِلـدَّاخِلِينَ بِهَـا ... مَـا تَشـتَـهِي وَتَلِـذُّ العَينُ مِنْ نِعَمِ

أَنَسـى الوَرَى جُودُهُ اِسـمَ الأَسـخِيَاءِ فلا ... تُـعـنَى بِمَـعـنٍ وَلَا تَهـتَـمَّ بالهَـرِمِ[٧١]
طَلْقٌ مُحيَّـاهُ، رَحبُ الرَّاحِ، أَجوَدُ مِنْ ... سُـحْبٍ تَسُـحُّ بِلَا ضَـجْرٍ وَلَا سَـأَمِ
يَلقَى العُفَـاةَ بِوَجـهٍ مِنـهُ مُتَّسِـمٍ ... بِحُسْـنِـهِ، وَبِثَـغرٍ أَيِّ مُبْتَسِـمِ[٧٢]

---

[٦٦] زمناً: حال، أراد أن الدهر إذا أرادني بسوء استجرت بالنبي، فانصرف عني زمني مصاباً بالزمانة؛ أي: العاهة التي لا تبرأ.

[٦٧] احدودقت: أحاطت، الظبى: جمع ظبة، وهي حرف السيف والرمح، إزم: جمع أزمة، والمراد: كلما أحاطت بي الأزمات وبلغت حافَة الهلكة، هززت نصلاً: كناية عن تملكي لسلاح الدفاع والنصرة على الأزمات.

[٦٨] جدواه: عطيته وفائدته.

[٦٩] المجتدي: طالب الجدوى والفائدة، السيب: المطر، مَبْسِمُه: ثغره، الصوب: المطر، العارض: السحب الكثيفة المعترضة في الأفق، الهزم: الغامر.

[٧٠] النجع: المرعى، وهو كناية عن الخصب والري، أمم: قريب.

[٧١] معن: هو معن بن زائدة من أجود العرب وحلمائها، الهرم: هو هرم بن سنان من أشراف العرب، تعهد بديات قتلى عبش ذبيان من ماله، والأعلام لا تعَّرف في العربية، وكان حقه أن يقول: ولا ترنو إلى هرم.

[٧٢] العفاة: الأضياف وطالبي المعروف.

يَـــــــفـتَرُّ عَـن دُرَرٍ فُـوهُ وَنَـكـهَـتُـهُ ... أَشـــهَى مِن العَنبَرِ الوردِيّ فِي الشَّـــمَمِ[٧٣]
أَعـظِـمْ بِـهِ وَهُـوَ فَـردٌ لَا تُـفَـارِقُـهُ ... مَهَـابَـةُ المِلِـكِ المحفُوفِ بَالحَشَـــمِ!
يُعطِي الوُفُودَ بِمَـا يُغنِيهِمُ خَجَلاً ... وَجُـودُهُ بِالـعَـطَـايَا مُخجِـلُ الـدِّيَمِ[٧٤]
هُـو الـكَـرِيمُ الَّـذِي لَمْ تُـبـقِ رَاحَـتُـهُ ... لِحَـاتِمٍ غَـيرَ مَحـضِ الاِســـمِ مِـنْ كَـرَمِ
قَـد طَـالَمَـا أَغنَـت العَـافِينَ رَاحَتُـهُ ... حَـتَّى لَـيَـغشَـــاهُـمُ يَمٌّ مِـنَ الـنِّـعَـمِ[٧٥]
حَـتَّى غَـدَا رَحمَـةً لِـلـعَـالَـمِـينَ عـلـى ... يَـدَيـهِ يَأمَـنُ مَـنْ فِي الأَرضِ مِـنْ نِـقَـمِ

حَـازَ المحَـاسِـــنَ حَتَّى إِنَّ يُوسُـــفَ لَو ... يَأتِي يُـواسِمُـهُ فِي الحُسْـــنِ لَم يَسِـــمِ[٧٦]
بل حُسْـنُ يُوسُـفَ جُزءٌ مِن محَاسِـنِ مَن ... كُـلُّ المحَاسِـــنِ فِيهِ غَيرُ مُنقَسِـــمِ
يَا سَـــيِّدَاً سَـــبَّحَت فِي رَاحَتَيهِ حَصَـــىً ... تَسـبِيحَ ذِيْ النُونِ يَـدعُو اللهَ فِي الظُّلَمِ
وَوَاحِـدَاً مَـا لَـهُ ثَانٍ يُشَـــارِكُـــــهُ ... فِي شَـدَّةِ البَطْـشِ أَو فِي صَفْـوَةِ الشِّـيَـمِ[٧٧]
صَـــعـبُ العَرَائِـكِ لِلأَعـدَاءِ قَـد مُزِجَـتْ ... بِـقُـوَّةِ الـبَـأسِ مِـنـهُ رِقَّـةُ الـرَّحَـمِ[٧٨]
عَـمَّ الـوَرَى عَـدلُـهُ حَـتَّى يَـعُـودَ لَهُـم ... مِـنـهُ أَمَـانٌ أَوَوْا مِـنـهُ إِلى حَـرَمِ
وَفِي القِيـامَـةِ قَـد عَمَّـتْ شَـفَـاعَتُـهُ ... إِلَيـهِ يَـلـجَـأُ فِيـهَـا كُـلُّ مُجْتَـــــرِمِ
حَـتّى لَـقَـد رَفـرَفَـتْ رَايَاتُ رَأفَـتِـهِ ... فِيهَـا عَلى كُـلِّ مَنْ فِي الحَشْـــرِ مِن أُمَمِ
وَالرُّسُـــلُ يُشـــغِلُهُم عَن هَمِّ أُمَتِهِم ... هَـمُّ الـنُّـفوسِ وَهَـوْلُ الحَـادِثِ العَـمِـمِ[٧٩]
حَتَّى لَقَـد دُهِشُـــوا فِيهَـا لِشِـــدَّةِ مَـا ... قَـد عَـايَـنُـوهُ مِـنَ الأَهـوَالِ وَالـنِّـقَـمِ
فَثَمَّ يَـــــمـــــدَحُـهُ كُـلُّ الأَنَامِ كَمَا ... يُـعـطَـى هُـنَـاكَ لِـوَاءَ الحَـمـدِ وَالـكَـرَمِ

---

[٧٣] يفتر عن درر فوه: أي فمه ينكشف عن مثل الدر من التبسّم.

[٧٤] مخجل الديم: أي: ن السحاب المملوء بالمطر والجود يخجل حين يرى جود النبي ﷺ.

[٧٥] العافين: العفاة وهو الأضياف، يم: بحر.

[٧٦] يواسمه: يساميه وينافسه، لم يسم: لم يغلب.

[٧٧] صفوة الشيم: مكارم الأخلاق العالية.

[٧٨] صعب العرائك: شديد الشكيمة: جبَّار.

[٧٩] الحادث العمم: المصيبة العامة أراد بها أهوال الحساب يوم القيامة.

الفصل السادس

بَالِغْ بِمدحِكَ وَاستَغْرِقْ وَغَالِ كَمَا ... قد شِئْتَه غَيرَ مُهتَّمٍ وَمُتَّهَمِ
فَإنَّ فَضلَ رَسُولِ اللهِ لَيسَ لَهُ ... مَدَىً لَدَيهِ انتَهَى ذُو القَولِ والقَلَمِ
فَغَايَةُ القَولِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ... لَم يَشهَدُوا مِثلَهُ في الخَلْقِ وَالشِّيَمِ
وَأَنَّهُ صَفوَةُ الكَونَينِ نُورُهُمَا ... في حَدِّهِ حَارَ ذِهْنِ الحَاذِقِ الفَهِمِ
لَهُ فَضَائِلُ لَا تُحصَى وَرُتبَتُهُ ... تَسمُو إلى مُنتَهَى الأَوهَامِ وَالهِمَمِ
حَتَّى تَوَحَّدَ فَرْداً فِي جَلَالَتِهِ ... مِن بَينِ قَومٍ قَدِيمي المِجدِ وَالكَرَمِ

قَومٌ لَهُم فِي قُرَيشٍ بَيتُ مَكرُمَةٍ ... أَقَامَهُ اللهُ مِن عِزٍّ عَلى دُعُمِ[٨٠]
قَومٌ تَقَادَمَ مِنْ منذُ الفِطَحْلِ لهم ... عِزٌّ يَكَادُ يُبَاهِي الدَّهْرَ بِالقِدَمِ[٨١]
أَقسَمْتُ بِاللهِ أَنَّ اللهَ فَضَّلَهُمْ ... عَلى الوَرَى وَكَفَى اِسمُ اللهِ في القَسَمِ
إِذَا تَشَارَكَتِ الأَعرَابُ في نَسَبٍ ... فَالهَاشِمِيّونَ مِنهُمْ صَفوَةُ الأُمَمِ
تَدرِيْ قُرَيشُ غَدَاةَ الفَخرِ أَنَّهُمُ ... فِي مُنتَهَى قُنَنٍ مِنهُم وَفِي قِمَمِ[٨٢]
قَومُ النَّبِيِّ الَّذِي لَولَا جَلَالَتُهُ ... مَا أُخرِجَتْ مُمكِنَاتُ الكَونِ مِن عَدَمِ
يَفنَى الزَّمَانُ وَيَفنَى الوَاصِفُونَ لَهُ ... وَفِيهِ مَا لَمْ يُبَنْ وَصفاً وَلَمْ يُرَمِ[٨٣]
تَبقَى العَوَالِمُ حَيْرَى حِينَ تَمدَحُهُ ... خُرْسَاً بِرُتبَتِهِ القَعْسَاءِ لَم تَحُمِ[٨٤]
فَكَم تَفَنَّنَ فِيهِ المِادِحُونَ وَلَم ... يُوفُوا وَلَو بَعضَ مَا فِيهِ مِن الكَرَمِ
بَل مُفرِطُوهُم إِذا أَطرَوْهُ كَم تَرَكُوا ... بَدَائِعَاً مِن عَوالٍ فِيهِ مِن شِيَمِ[٨٥]

---

[٨٠] الدعم: جمع دعامة وهي الأساس المتين.

[٨١] الفطحل: الدهر السابق لخلق الناس، وحقه أن يقول: من فجر الفطحل أو من عهد الفطحل.

[٨٢] قنن: ذرى وقمم.

[٨٣] لم يرم: لم يقصد بالمديح.

[٨٤] القعساء: الراسخة الثابتة، لم تحم: لم تطف حول جميعها.

[٨٥] مفرطوهم: المبالغون في المديح منهم، إذا أطروه: إذا مدحوه.

مِن بَعْدِمَا اســـتَقرَؤُوا الدُّنيَا وَلَم يَجِدُوا ... بَينَ اللُّغَى مَا يُؤَدِّيهَا منَ الكَلِمِ[٨٦]
تِلكَ المعَانِي الَّتِي جَلَّتْ دَقَائِقُهَا ... عَن أَن يُعَبِّرَ عَنهَا نَاطِقٌ بِفَمِ
بَل رُبَّ مَعنًى بَدِيعٍ لَا يُقَابِلُهُ ... لَفظٌ لِدِقَّتِهِ بَاقٍ كَمُنْعَدِمِ[٨٧]
مِنْ كلِّ أَوضَحَ مِن صُبحٍ لِمُبصِرِهِ ... وَهَلْ مَعَ الصُّبحِ وَالإِبصَارِ مِنْ تُهَمِ
يَصَحُّ فِي نَظَرِ الأَذهَانِ صُورَتُهُ ... كَمَا يَصِحُّ ضِيَاءُ الزُّهرِ فِي الظُّلَمِ[٨٨]
لَكِنَّهُ لِقُصُورِ اللَّفظِ عَنهُ غَدَا ... مَعَ الوجُودِ مُحَالَ الذِّكرِ كَالعَدَمِ

جَاءَتْ مُصَرِّحَةً مِن قَبْلِ مَبْعَثِهِ ... بِفَضلِهِ الرُّسُلُ الأُولَى إِلى الأُمَمِ
مَازَالَ مُنتَظِراً لِلكُلِّ يَرقُبُهُ ... قَبلَ الوجُودِ قَبِيلَا العُرْبِ والعَجَمِ[٨٩]
كَم ظَلَّ مِثلَ هِلَالِ العِيدِ تَرصُدُهُ ... لِلعَالَمِينَ عُيُونٌ عَنْهُ لَمْ تَنَمِ
يَرجُونَ مِنْهُ إِذَا مَا جَاءَهُم فَرَجَاً ... كَمَا رَجَا البُرءَ بِالأَدوَاءِ ذُو سَقَمِ
حَتَّى يَقُولَ لِفَرطِ الشَّوقِ قَائِلُهَا ... أَيَّانَ يُبْعَثُ ذُو الأَحكَامِ وَالحِكَمِ
لَكِن إِذا جَاءَهُمْ بِالحَقِّ قَابَلَهُ ... ذو الحُمْقِ وَالشَّقوَةِ المَمقُوتُ بالنِّقَمِ
ضَلُّوا فَلَم يَهتَدُوا مِن جَهلِهِم وهُمُ ... لَم يَعرِفُوا الفَرْقَ بَينَ النُّورِ وَالظُّلَمِ
بَل هُمْ أَضَلُّ مِنَ الأَنعَامِ حَيثُ عَمُوا ... عَنْ الصَّبَاحِ وَبَاعُوا الصِّدقَ بِالصَّنَمِ
هَمُّوا إِذَا مَا أَبُوا إِلا الشَّقَاءَ لَهُم ... أن يَستُرُوا نُورَ تِلكَ الشَّمسِ باللُّثَمِ[٩٠]
فَاستَعمَلَ الكُلُّ ما في الوسعِ صَارِفَةً ... فِي رَدِّهِ كُلَّ مَا فِيهِمْ مِنَ الهِمَمِ
لَم يَترُكِ الشِّركُ لَا حَوْلاً وَلَا حِيَلاً ... كَي يَكتُموا نُورَ صُبحٍ غَيرِ مُنْكَتِمِ
طَوراً بِحَربٍ وَطَوراً بِالجِدَالِ وَقَد ... صَاغُوا أَبَاطِلَهُم مِن زُخْرِفِ الكَلِمِ

---

[٨٦] اللغى: جمع لغة.

[٨٧] باق كمنعدم: أي باق في الحقيقة وإن كان منعدماً في الذكر والرواية.

[٨٨] الزهر: الأنجم الزهر المشرقة.

[٨٩] قبيلاً: مثنى قبيل، وهو القبيلة العظيمة.

[٩٠] اللّثم: جمع لثام وهو الغطاء على الوجه.

كَضَـــوءِ هَيْكَـلِ جَوزٍ أَنـتَ تُبصِـرُهُ ... فِي البُعـدِ لَكنْ مَتى تَقرَبْـهُ يَنْعَـدِمِ[٩١]

أَو آلِ قِـيـعَـةٍ والـظـمـآنُ يَحْسَـــبُـهُ ... مـاءً، وَمَهمَـا يَرِدْهُ عَـادَ وَهوَ ظَمِي[٩٢]

الفصل السابع

بُشـــرَى لَـنَـا أُمَّـةَ الأُمِّـي إِنَّ لَـنَـا ... مِن السَّـــعَـادَةِ سُـــوراً غَيرَ مُنْثَلِمِ[٩٣]

فَـنَـحـنُ بَـينَ الـبَرايَا أُمَّـةٌ وَسَـــطٌ ... مَـرحُـومَـةٌ شُـــهَـدَاءُ اللهِ فِي الأُمَـمِ

سَـــيَـبـعَـثُـونَ غَـدَاً غُـرَّاً مُحَـجَّـلَـةً ... إِذَا غَـدَتْ أَوجُـهُ الأَغيَـارِ كَـالحِمَمِ[٩٤]

لَمَّا اختُصِـصْـنَا بِخَيرِ الرُّسُـلِ خُصَّ بِنَا ... مَجْـدٌ وَفَضـــلٌ وَعِـزٌّ غَـيرُ مُـنْـخَـرِمِ[٩٥]

فَـاقَ الـنَّـبِـيِّـينَ وَالأَمْـلَاكُ رُتـبَـتُـهُ ... وَلَم تُـعَـادِلْـهُ فِي أَخـلَاقِـهِ الـعُـظَـمِ

لَـــم تَرْق مِنهُم أُولُو العَزمِ الَّذيـــنَ عَلُوا ... رُقِيَّهُ فِي عـــــــــــــلوِّ القَدْرِ والقِيَمِ

وَمَـا أَرَوْا قَـومَـهُـم مِـنْ كُـلِّ مُـعـجِـزَةٍ ... عُظمَى فَلَمْ تَقْرَبِ القُرآنَ فِي العِظَمِ

بَـل مُعجِزَاتُ جَمِيعِ الرُّسُـــلِ دَارِسَـــةٌ ... مَنسِـــيَّـةٌ بِانقِرَاضِ الرُّســـلِ وَالأُمَمِ[٩٦]

فَـحَـبَّـذَا آيَـةُ الـقُـرآنِ دَائِـمَـةً ... وَمَـا سِـــوَاهَـا مِـن الآيَاتِ لَمْ تَـدُمِ

فِـيـهَـا مَـوَاعِـظُ مَـازَالَـتْ رَقَـائِـقُـهَـا ... صَـــقَّـالَـةً صَـــدَأَ الأَذهَـانِ مِن تُهَمِ[٩٧]

تَبقَى عَلى الـدَّهرِ بَينَ الخَلْقِ حُـجَّتُـهُ ... بَيضَـــاءَ تُدْحِضُ عَفوَاً حُجَّةَ الخَصِـــمِ[٩٨]

تُلغِيْ زَخَـارِفَ مَنْ يَأتِي يُعَـارِضُـــهَـا ... كَـأَنَّهَـا الصُّـــبحُ يُلغِي غَيهَـبَ الظُّلَمِ

---

[٩١] هيكل جوز: الجوز: الماء الذي يجوز عليه المسافرون، ويبدو أنها محطات كانت توضع فيها جرار الماء للسقيا، وتنصب عليها الهياكل ليراها المسافرون، ويوضع فيها سراج، ومراده أنها كمحطة السقيا المضيئة ولكن لا ماء فيها.

[٩٢] آل قيعة: سراب القيعة، والقيعة هي المنبسط العظيم من الأرض لا ارتفاع فيه ولا انخفاض، تنظر إليه فتحسب به ماءً وما به ماء.

[٩٣] سوراً: حائطاً، وقاءً، غير منثلم: غير منكسر.

[٩٤] غر محجلة: يقال للفرس غرٌّ إذا ابيضت غرتها: ويقال لها محجلة إذا ابيضت قوائمها، وفي الحديث إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجَّلين من أثر الوضوء؛ لأن موضع الوضوء من المؤمن يشرق بالنور يوم القيامة، الحمم: الفحم الأسود.

[٩٥] غير منخرم: غير منقطع.

[٩٦] دارسة: ذاهبة ومنتهية.

[٩٧] صقالة: من الصقل، وهو المسح والصقل.

[٩٨] عفواً بلا تكلف.

مَـا آيَـةٌ مِـنـهُ إلا وَهِـيَ مَـعـجِـزَةٌ ... تَمحُو وَسَـاوِسَ ذِي شَـحنَاءَ مُتَّهَمِ[٩٩]

بِكُـلِّ مَعنَى بَـدِيعِ اللَّفظِ عَلَّمَهُمْ ... مَـا سَـوفَ يَأتِي وَمَـا قَـدْ مَرَّ فِي الأُمَمِ

فِيهَـا لِمَنْ يَفهَمُ الأَسـرَارَ فَهرَسَـةٌ ... قَـد أَوجَزَتْ كُـلَّ عِلمِ اللَّوحِ وَالقَلَمِ[١٠٠]

تُـعـيِـي الـوَرَى وَهِـيَ أَقـوَالٌ مُـؤَلَّـفَـةٌ ... مِن جِنسِ مَـا عَلِمُوا مِن سَـائِرِ الكَلِمِ

حَتَّى تَرى كُـلَّ مَن يَأتِي يُعَـارِضُـهَـا ... مَـا بَينَ مُنخَزِلٍ مِنهُم وَمُنْفَحِمِ[١٠١]

بِكُـلِّ مُنسَـجِمٍ حُـلوِ المِـذَاق وَإِن ... يـذقْـه منْ يجهـلُ المعنى من العَجَمِ

مـا رَدَّ دَعوَى العِـدَى عَنهَـا بَلَاغَتُهَـا ... إلا وَقَـد أَكَـلُـوا الأَيـدِي مِـن النَّـدَمِ

حَـتَّى يَخَـالُـوا وَقَـد أَدمُـوا أَنَامِـلَـهُـمْ ... مَعضُـوضَـةً آكِلِي العُنَّابِ وَالعَنَمِ[١٠٢]

جَـاؤُوا وَأوجَـهُـهُـمْ كَـالزَّهرِ فَـانقَلَبُوا ... وَهُـنَّ أَحـلَـكُ أَلـوَانَاً مِـن الحِـمَـمِ

وَغُـودِرَتْ كَـالأَثَافِي السُّـفعِ قَـائِمَـةً ... قَد اسـتعَارَتْ سَـوَادَ القَارِ وَالقَتَمِ[١٠٣]

تِلـكَ الوجُوهُ التي شَـاهَـتْ فَيُرهِقُهـا ... لَونَانِ جُونَانِ مِن عَجزٍ وَمِنْ نَـدَمِ[١٠٤]

وَأَحْـرِ بِالعَـجزِ حِزبٌ لَا نَصـيرَ لَهُم ... إذا تَصَـدُوا لِدعُواهُم سِـوى صَـنَمِ[١٠٥]

جَـاءَت بِأَبـدَعِ أُسـلُـوبٍ مُـرَكَّـبَـةٍ ... من كـلِّ حرفٍ حوى بحراً من الحِكَمِ

مُـؤَزَّلَاتٍ بِـذَاتِ اللهِ قَـائِـمَـةً ... كَغَيرِهَـا مِن صِـفَـاتِ اللهِ فِي القِـدَمِ[١٠٦]

يَـكَـادُ يُـغْـرِقُ دونَ المـوجِ قَـطـرَتُهَـا ... مَن أَشـقِيَـاءِ الأَعَـادِي كُـلَّ مُقتَحِمِ

وَيُلزِمُ الخَصـمَ فَحوَاهَـا عَلَى جِـدَةٍ ... بِـلَا احـتِـيَـاجٍ إلى قـاضٍ ولا حَـكَـمِ

عقَّـدْنَ من لُسُـنِ الأَعرَابِ أَلسُـنَهَـا ... حُرْسَـاً من العَجْزِ. لا حُرْسَـاً من البَكَمِ[١٠٧]

---

[٩٩] وساوس ذي شحناء متهم: الشبهات التي يلقيها أهل الشحناء والبغضاء اتهاما للنبوة.

[١٠٠] فهرسة: تصنيف.

[١٠١] منخزل: من الإنخزال: وهو مشية القهقري فيها تثاقل واعوجاج، منفحم من الانفحام، وهو السكوت أمام الحجة القاطعة.

[١٠٢] العناب: نوع من الثمر أحمر. والعنم: ضرب من الشجر يفرز صباغاً أحمر كأنه الخضاب.

[١٠٣] الأثافي: جمع أثفية: وهي الحجارة التي توضع عليها القدر، فتوقد عليها النار فتسود، والسفع: السوداء، القار: الزفت. القتم: السواد، يقال: ليل قاتم.

[١٠٤] جونان: مثنى جون وهو اللون الأسود.

[١٠٥] أحر بالعجز: أحق بالعجز.

[١٠٦] مؤزلات: أزلية.

[١٠٧] عقَّدن: ربطن وأوثقن. لُسُن الأعراب: فصحائها.

مَا كِدتُ أَحسَبُ حَتَّى ذُقتُ لَذَّتَهَا ... أَنْ يُودِعَ اللهُ مَعنَى الشَّهدِ فِي الكَلِمِ[108]
أَطِيبْ بِهَا كُلَّمَا كَرَّرْتَهَا، وَمَتَى ... كَرَّرْتَ شَيئَاً سِوَاها سَاءَ مِنْ سَأَمِ[109]
مَهمَا أَذُقْهَا تَزِدنِي مِنْ حَلَاوَتِهَا ... وَتَحبُنِي مِن جَدِيدِ الحُكْمِ وَالحِكَمِ[110]

الفصل الثامن

وَظُلَّةُ الغَيمِ سَارَت تُظَلِّلُهُ ... مِن قَيحِ ضَحْيٍ كَلَفحِ النَّارِ فِي الضَّرَمِ[111]
وَانشَقَّ مُعجِزَةً عُظمَى لَهُ قَمَرٌ ... إِذ قَامَ يَدحَضُ دَعوَى المنكِرِ الخَصِمِ[112]
وَمَا رَأَتْهُ العِدَى وَالعَينُ نَاظِرَةٌ ... فِي الغارِ وهو أمامَ العينِ كالعَلَمِ[113]
وكُلَّمَا أحْدَقُوا فِي الغَارِ نَظْرَهُمُ ... عَادُوا يَقُولُونَ مَا فِي الغَارِ مِن أَرِمِ[114]
وَردَّهُم عَنهُ نَسجُ العَنكَبُوتِ وَلَا ... ثَغرٌ سِوَاهُ وَإِلَا السَّجعُ لِليَمَمِ[115]
إِذَا وَقَى اللهُ عَبدَاً بِالعِنَايَةِ لَمْ ... يَحتَجْ إِلى الحِصنِ وَالأَدرَاعِ فِي العِصَمِ
وَكَم شَفَتْ سُقْمَاً بِالمِسحِ رَاحَتُهُ ... فَلَم يَروا بَعدَهُ لِلدَّاءِ مِن أَلَمِ
أَطَاعَهُ الغَيمُ حَتَّى إِنَّ دَعُوتَه ... أَحيَا بِهَا الأَرضَ مُحيِي الأَعظُمِ الرَّمَمِ[116]

كَأَنَّمَا الرَّوضُ مَحْيَاةٌ بِدَعوَتِهِ ... مُوشِيَّةٌ مِنهُ بِالأَزهَارِ مِن شِيَمِ[117]
جَاءَت لِدعوَتِهِ الأَشجَارُ نَاكِسَةً ... رُؤوسَهَا عَادَةَ المطوَاعِ مِن خَدَمِ
أَجَبْنَهُ وَهوَ يَدعُوهَا لِحَاجَتِهِ ... مَشيَاً عَلَى رَأسِهَا فَضَلَاً عَن القَدَمِ

---

[108] الشهد: العسل

[109] السأم: الملالة.

[110] تحبني: تعطيني وتمنحني.

[111] ظلة الغيم: السحاب المظلل، فيح ضحيً: حر الشمس، وضحا إذا برز للشمس.

[112] الخصم: الشديد في مجادلته.

[113] العلم: العلامة الظاهرة، ويسمى الجبل الشامخ: العَلَم.

[114] أرم: الإرم: الأثر. ولم أقف على معنى (أرم) كما ضبطها الناسخ. ولعلها لغتان.

[115] ولا ثغر سواه: أراد لامدخل للغار إلا من حيث نسج العنكبوت. السجع: صوت الحمام. اليمم: جمع يمامة وهي نوع من الحمام البري غالبه أبيض.

[116] الرمم: جمع رمة، وهو العظم التالف الهش، ومحيي الأعظم الرمم هو الله سبحانه، والمراد أن الله عز وجل أحيا بدعوته الأعظم الرمم.

[117] موشية: مزينة، الشيم: جمع شامة، وهي ما يظهر في الخد، والعرب تعدها من آيات الجمال، والمراد أن الزهر في الروض أصبح كالشامات في خدود الحسناوات.

وَأَشـــبعَ الجيشَ بَالتَّمرِ القَليـلِ وَقَـدْ ... أَتـوهُ يَشـــكُـونَ فَـرطَ الجُـوعِ وَالـنَّـهَـمِ
وَعَـادَ مِن عِنـدِهِ مَن جَـاءَ مُشـــتَكِيَـاً ... مِن جُوعِهِ وَهو أَشـــكَى مِنهُ بالتَّخَمِ[118]
والـكِـتْـفُ كـلَّـمَـهُ بالسُّـــمِّ يُخْـبِرُهُ ... فَـيَـا لَـهُ مِـن كَـلَامٍ لَمْ يَـكُـن بِـفَـمِ

طَوى مَسَـــافَـةَ شَـــهرٍ سَـــاعَتَينِ إِذَا ... سَـــرَى إِلى الحرَمِ الأَقصَـــى مِنَ الحَرَمِ
عَـلَـى الـبُراقِ الَّـذِي مَـازَال تَـركَـبُـهُ ... مِن قَبلِهِ الرُّســـلُ فِي الحَاجَات مِن قِدَمِ
قَد جَـــاءَ مِنْ جَنَّةِ الفِـردَوسِ يَـصْحَبُـهُ ... جِبريـلُ فـي جُنَّـــتِيّ السَّرجِ وَاللُّجُمِ[119]
لَـهُ خُطَىً تَخطِفُ الأَبصَـــارَ سُـــرعَتُهَا ... كَأَنَّهُنَّ رُجُـــــومُ الشُهـــبِ في الظُّلَمِ
يَـــــطوي بِـهِ كُـلُّ خَطوٍ مِنـهُ مَرحَلَـةً ... كَمَا استَعَـــارَتْ جَنَاحَي طائرٍ جَذِمِ[120]
يَا لَابِســـــاً بُـرْدَتَيْ عِـزٍّ وَمَـكْـرُمَـةٍ ... زَانَتْهُمَا نَفسُـهُ بِالوَشـيِ من شِيَـــمِ[121]
مَـازِلـتَ تَـعلُو بِـهِ فِي المرتَـقَى رُتَـبَـاً ... حَتَّى تَوقَّلْتَ أَسنَـى مُنتَهَـى الشَّمَـــمِ[122]
وَجزتَ تَختَرِقُ السَّـــبْعَ الشِّـــدَادَ إِلَـــــى ... أَنْ فُزْتَ بِالمكِنِ الأَقصَـــى مِن الأُمَمِ
تُـزجُّ فِي حُـجُـبِ الأَنـوارِ تَخـرقُـهـا ... إِلى حمى الـــــقُـدْسِ فَرْداً غَيرَ مُزْدَحِمِ
تَرقَى مِـن الـقُـربِ فَـوقَ الخُـلقِ مَـنزِلَـةً ... قـدســـيَّـةً لم يَطَـأهَـا الغَيرُ بِالقَـدَمِ
فِي مَـوطِنٍ غَبَطَتـكَ المرسَـــلُونَ بِـهِ ... وَأَنـتَ بِالمـنظَـرِ الأَعـلَـى مِـن الـعِـظَـمِ
بِـقَـابِ قَـوسَـــينِ أَو أَدنَى دَنَـوتَ إِلى ... مَولىً سَـــقَتْكَ يَـدَاهُ البَحْرَ مِن حِكَمِ[123]
حَـتَّى عَـلـمـتَ عُـلُـومَـاً غَـيرَ دَاخِـلَـةٍ ... فِي حَيطَـةِ اللَّفظِ أَو فِي حَوْزَةِ القَلَمِ[124]

---

[118] أشكى أكثر شكاية، التُّخم: كثرة الطعام.

[119] جنتي: مثنى جنة، هي الوقاء، وكل ما وقاك فهو جنة.

[120] مرحلة: المرحلة وحدة قياسية تعادل ٤٠ كيلو متراً تقريباً، والعدد هنا غير مراد، والمقصود أنه عظيم الخطى شديد السرعة، جذم: سريع القطع، ومنه الجذام لسرعة العدوى فيه.

[121] الوشي: النقش، الشيم: الخصال الحميدة.

[122] توقلت: من وقل؛ أي: صعد في الجبل، الشمم: القمم العالية البديعة، وشم الإنسان أنفه، وهو رمز كرامته وعزته، الأمم: القرب.

[123] بقاب قوسين: يراد شدة القرب، وأصل التركيب: قابا قوس، فاستبدل بقاب قوسين، وذلك أن لكل قوس قابان إن أمسكته يوشك أن يتصل قاباه من شدة القرب.

[124] حيطة اللفظ: ما أحاط به اللفظ، حوزة الكلم: ما حازه الكلم بالبيان.

خَـزَائِـنَـاً مِـن عُـلُـومِ اللهِ أَودَعَـهَـا ... فِي طَـيَّ قَـلبِـكَ سِـــرَّاً أَيُّ مُـنْـكَـتِـمِ
وَقَـد غَـدَوتَ إِمَـامَ المرسَـــلِينَ كَمَـا ... كَـانُـوا أَئِـمَـةَ أَجـيَـالٍ مِـن الأُمَـمِ
وَقَـدَّمُـوكَ كَـمَـا قَـد تَســـتَـحِـقُ لَـهُ ... إِذا تَـقَـدَّمْـتَـهُـمْ فِي الفَضـــلِ وَالكَرَمِ
وَزِنـتَ فِي المِـلَأ الأَعـلَـى مَـلَائِـكَـةً ... اســـتقبلت منكَ ضـــيفاً أيَّ مُحْتَرَمِ[125]
وَقبَّلَـتْ نَعلَـكَ الأَفلَاكُ إِذَا فَطِنـتْ ... لِمَنْ عَلَاهَـا بِيُمنِ النَّعـلِ وَالقَـدَمِ[126]

الفصل التاسع

يَا قَائِـــدَ الخَيـــلِ خَيـــلِ اللهِ يُقْدِمُها ... إِلـى الوَغَـــى غَـيرَ هَيَّـابٍ وَلَا بَـرِمِ[127]
يَـقُـودُ فِي كـلِّ حَـرْبٍ جَـحـفَـلَاً لجَبَـاً ... عَـرَمْـرَمَـاً مُغرِقَـاً كَالسَّيـلِ مِن عَرِمِ[128]
أُسْـــدَاً هـوادِرَ إِنْ يَخـفِـقْ لَهُـم عَـلَـمٌ ... أَعـدَتْ قُلُوبَ عِـدَاهـا الخَفْقَ مِنْ عَلَمِ[129]
دَامَـتْ عليهـا مِن المـاذِيِّ أَقمِصَـــةٌ ... مِن نَســـجِ دَاوودَ لَمْ تُصْـــبغْ بِغَيرِ دَمِ[130]
قَـد اطـمَـأنَّـوا إِلـيـهِ يَـومَ رُعْـبِـهِـمُ ... كَأَنَّمَـــا اعتَمَـــدُوا مِنـــهُ عَلى عَلَـــمِ[131]
عَبيَّتهم كُلَّمَـا اصـــطَفُّوا لِمَلْحَمَـةٍ ... حَـتَّى اغـتَـدَوا كِـجِـدَارٍ رُصَّ مُـنْـتَـظِـمِ
تُـقـيـمُـهُـم دُونَ يَأجُـوجِ الخِصَـــامِ إِذا ... جَـاؤُوا يَموجون سَـــدَّاً غيرَ مُنْثَلِمِ[132]
سَـــدَّاً يَـرُدُّ جُيوشَ الكُفرِ صَـــاغِرَةً ... رَدَّ الذي يَســـتَبِيل الأُسْـــدُ فِي الأُجمِ[133]

---

[125] زنت: زيَّنت.

[126] الأفلاك: النجوم.

[127] برم: من التبرم وهو الضجر والسآمة.

[128] الجحفل: الجيش العظيم الذي تقدمه الخيل، لجباً: مضطرباً صاخباً، وغلب إطلاقها هنا على الجيش العظيم الصاخب بأقدام الجند، العرمرم: الكثير الهائل، العرم: المطر الغزير المغرق.

[129] هوادر: في الأصل: خوادر، ولم أقف على معناها، وأغلب الظن أنها هوادر من الهدير، وهو الصوت القوي المزلزل، وأسْد جمع أسد، والعلم: السيف المشقوق في أعلاه، والمراد: أنهم إن تخفق راياتهم وأعلامهم يعدي ذلك الخفق من راياتهم قلوب أعدائهم، فتخفق قلوب أعدائهم رعباً من سيوفهم المعلمة.

[130] سلاح كله من الحديد يتترس به المقاتلون لدرء السيوف والسهام عنهم.

[131] عَلَمٌ: هنا بمعنى جبل، وقد وردت قبل بيتين بمعنيين اثنين آخرين وهما: الراية ـ السيف المشقوق.

[132] يأجوج الخصام: أراد به الخصوم الكثيرة أعدادهم كأنهم يأجوج ومأجوج. غير منثلم غير منخرق.

[133] الأجم: بيت الأسد، وفي الأصل الآجام: القصور، ولا يقال لشيء من بيوت الحيوان أجم إلا للأسد، ويستبيل: السبلة: هي الشعر في مقدمة اللحية، ولعل مراده أن من يمسك الأسود من سبالتها عابثاً في الأجم يعود مقطوع اليدين.

تَسُـــومُ سُـــوءَ الرّدى مَن سَـــوَّلَت لَهُمُ ... نُفُوسُـــهم أَن تَلينَ الأُســـدُ لِلخَدَمِ[١٣٤]

وَيـــــلٌ لهم حُمُرٌ صَـــالَتْ عَلى أَسَـــدٍ ... غَشَـمْشـمٍ مُسْـئِمٍ لِلخَصـمِ لَا سَـئِمِ[١٣٥]

وَالخيـلُ تَمرَحُ بِالأَصـــحَـابِ تُوقِفُهَـا ... بِالقَـهرِ عَـن كَرِّهـا مَثْنِيَّـةُ اللُّجُـمِ[١٣٦]

خَيـلٌ عِرَابٌ عَـلى أَثبَـاجِـهـا عُـرُبٌ ... تَـرَبَّـعُـوا بالـذُّرى الـغـربيّ مـن عَـلَـمِ[١٣٧]

تَغْلي من الغيظِ إذ عَضُّـــوا أَعِنَّتَهَـا ... فَكُلَّمَا صُـبِّرَتْ أَصـمَتْ على الشُّـكُمِ[١٣٨]

مِن كُلِّ أَشـــهَبَ يَعدُو في غُبَـــــارِهِمُ ... كمـا تَصَـــوَّبَ نَجمُ الرَّجْمِ في الظُّلَمِ[١٣٩]

وَكُلِّ أَغبش يغشـــاهُم فتحسَـــبُـــــهُ ... جُلمودَ صَـــخْرٍ تردَّى من ذُرَى عَلَمِ[١٤٠]

وَأَدهَـــمٍ مَثـــلَ جُنْحِ الليـــلِ متَّخـــــذٍ ... لَـهُ جَنَـاحَينِ مِـن أَريَاحِـهِ الـعُـقُـمِ[١٤١]

خَفَّت عَلَى ظَهرِهَا الفُرسَـانُ إِذ لُهِـــدِتْ ... تَحـتَ العِـدَى الخَيـلُ بِالأَحمَـال والحُزُمِ[١٤٢]

تَرَى العَوَاصِـــفَ إِذ تَعـدُو لِتلحَقُهـا ... وَرَاءَهـا وَهِي تَمشِـــي مِشـــيَةَ الحُذُمِ[١٤٣]

يَجُـــلْنَ في جَنَبَـــاتِ القَاعِ عَابِسَـــةً ... يَـنـظُرنَ عَـن جمراتِ الأعـيُنِ الجُـحُـمِ[١٤٤]

تُغيرُ فَوقَ مَطَـاهَـا الأُسْـــدُ تَجْعـلُ مَـا ... أَتَـتْ عَليـهِ مِن الأَعـداءِ كـالرَّمَمِ[١٤٥]

---

[١٣٤] تسوم: ترعى، والمراد هنا: تبتغي.

[١٣٥] حمر: جمع حمار، صالت: اعتدت، غشمشم: جريء جبار، مسئم للخصم: يصيب خصمه بالسآمة ولا يسأم، والسآمة: الكآبة والحزن والضجر.

[١٣٦] مثنية اللجم: اللجام المثنى أي الذي عقد حبله مرتين، فكان أحفظ وأوثق، والمراد بالبيت أن خيول الأصحاب مقدمة كرارة، لا يوقفها عن كرها إلا اللجم المثنية تقهرهم، ولولا اللجم لأقدمت في جيوش العدو لا يرهبها منهم شيء، ولا شك أن مدح الفرس مدح للفارس.

[١٣٧] أثباجها: جمع ثبج وهو الظهر، وخيل عراب: خيل عربية صافية ليس فيها عرق هجين، والذرى الغربي: أي القمم الغاربة أي العالية النازحة عن الناس، الممتنعة على القاصدين ، وعلم هنا بمعنى الجبل الشاهق.

[١٣٨] عضوا أعنتها: أي شدوا لها الأعنة ليكفوا من حدتها، أصمت: وصمت الشيء إذا شددته بسرعة فانصدع، وأصمى الفرس على لجامه إذا عض عليه ومضى. والشكم جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس أراد أن خيولهم لا تكف عن شوق القتال فإن شدوا أعنتها راحت تعض على الشكم من الغيظ.

[١٣٩] أشهب: أراد فرساً أشهب، وهو الفرس البيضاء يشوبها سواد في خلالها.

[١٤٠] أغبش: أراد فرساً أغبش، والغبش: سواد آخر الليل، جلمود صخر: الصخر الأصم.

[١٤١] أدهم: أراد فرساً أدهم، والدهم السواد، والعقم: جمع عقيم، أراد بها الريح العقيم المتلفة.

[١٤٢] لهدت: من اللهيد وهو أن تحمل الخيل حملاً ثقيلاً فينشدخ ظهرها، أراد أن أعداءهم يركبون دواباً لاهدة من كثرة ما يحملون عليها من جرحاهم وقتلاهم وأمتعتهم حال الفرار.

[١٤٣] مشية الحذم: هي مشية المسرع المتعثر، وهي في الأصل مشية الأرانب السراع.

[١٤٤] يجلن: من الجولة، وهي تجول المالك في ملكه، والرئيس في جنده، جمرات: جمع جمرة، الجحم: الشاخصة، وهي في الأصل آفة تصيب عين البعير فيكوى ما بين عينيه، فيصبح دائم الشخوص.

[١٤٥] فوق مطاها: فوق ظهورها، الرمم: العظام البالية.

آسَـــادُ غِيـلٍ هَواهمُ في الجِهَـادِ فَلَا ... يُلهِيْهُمُ عنـه همُّ العَيشِ وَالنِّعَمِ[١٤٦]
مَخلُوقَـةٌ فِطَرَةً لِلبَطْشِ إنْ نَقِمَـتْ ... في الحَربِ تَلتَقِمُ الأَعـدَاءَ كَـاللُّقُمِ[١٤٧]
شُـمُّ العَرانِين مِن أُسْـدِ العَرين ومَنْ ... سَـقَوا قِفَارَ العِدى إذ أُقْحِطُوا بِدَمِ[١٤٨]
وَأَرْسَـلُوا رُسُـلَ الأَرْمَـاحِ بَاحِثَـةً ... بَين الحَشَـا عن مَحلِّ الضَّـغْنِ وَالأضَـمِ[١٤٩]
تَخشَى العَفَاريـتُ فِي الغَارَات صَولَتَهُم ... وَتَتَّقِي بَطشَـهَا الآسَـادُ في الأُجُمِ[١٥٠]
مَنصُـورَةٌ بِالصَّـبـا يَمشِـي أَمَـامَهُمُ ... إلى قُلُوبِ العِـدَى رُعْـبٌ بِلَا قَـدَمِ[١٥١]
وَالحَربُ كَاشِـرَةٌ عَن بِيْضِـهِمُ فَحَكَتْ ... لِلنَّـاظِرِينَ اِهتزَازُ البَرقِ في الظُّلَمِ[١٥٢]
بِمَـأزِقٍ قَـاتِمِ الأَعـمَـاقِ ذِي رَهَـجٍ ... غَـطَّـتْ وُجُـوهَ بَـنِيـهِ قَـتْرَةُ الـقُـتُـمِ[١٥٣]
مِنْ كُـلِّ مُسْـعرِ حَرْبٍ في مَلَاحِمِـهِ ... إلى لُحُـومِ عِـدَى خَـيرِ الـوَرَى لَحِـمِ[١٥٤]
يَلقَى العَدوَّ يعيني ضَـيغَمٍ ضَـرِمٍ ... مُـدَجَّجٍ بالـدَّم المـعْبـوطِ مُـلـتَـثِـمِ[١٥٥]
أخي الغياهِبَ، خِرِّيتِ السَّبـاسِبِ لا ... يحـتـاجُ فـيـهـا إلى نَجـمٍ ولا وَجَـمِ[١٥٦]
يَغضِـي حَيَـاءً وَفِي جِلبَـابِـهِ جَبَـلٌ ... يَهُـدُّ في الحربِ رُكني كَـلِّ مصـطَـدِمِ[١٥٧]
كـأنَّهم إذ غَزَوا فيهم أسـودُ شَـرَى ... أَقَـامَـت الغـارةَ الشَّـعواءَ في الغَنَمِ[١٥٨]

---

[١٤٦] آساد غيل: من الغيلة وهي الهلكة والموت، والمراد أنهم أسود خلقوا لغيلة الأعادي.

[١٤٧] اللقم: جمع لقمة.

[١٤٨] العرنين: الأنف، والمقصود أنهم شامخو الأنوف، وأول من استعمل هذا التركيب كعب بن زهير، قفار: جمع قفر، وهي الأرض التي لا نبات فيها ولا ماء.

[١٤٩] الضغن: الحقد، الأضم: الغضب.

[١٥٠] الأجم: بيوت الأسد، وقد مرت.

[١٥١] الصبا: ريح طيبة تهب من المشرق، وكان النبي ﷺ يقول: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور.

[١٥٢] كاشرة: كشر الليث إذا بدت أنيابه. والبيض: السيوف. ومراده أن السيوف الصارمة بمثابة أنياب للحرب.

[١٥٣] قاتم الأعماق: أسود مرعب، المأزق: المضيق، ذي رهج: ذي غبار، القترة: غبرة يعلوها سواد كالدخان، وأصل القتار ما يعلق بالقدر من سواد إذا وضع على النار، والقتم جمع قتام وهو الغبار الحالك فيه رائحة كريهة.

[١٥٤] مسعر حرب: مُشعل حرب، لحم: مُشتهي اللحم.

[١٥٥] ضيغم: اسم من أسماء الأسد، ضرم: جائع، المدجج: هو المغطّى بسلاح تام، الدم المعبوط: الدم المسفوك ظلماً لا عن قصاص.

[١٥٦] أخي الغياهب: أراد أنه يألف الغياهب حتى كأنه واخاها، الغيهب الظلام الشديد، أراد به ظلام نقع المعركة، خرِّيت: هو الماهر الحاذق. السباسب: جمع سبسب، وهي المفازة من الأرض القفر البعيدة التي لايهتدي فيها أحد، الوجم: حجارة مركومة توضع علامات يهتدى بها في الصحارى.

[١٥٧] يغضي حياء: أراد أنه يتغافل عن إساءة المسيء ويعفو ويغفر.

[١٥٨] الشّرى: موضع تنسب إليه الأسود الضارية، قيل هو صوب الفرات به غياض وآجام ومأسدة. الغارة الشعواء: الغارة: الهجوم السريع على حين غرة، والشعواء الفاشية المنتشرة.

أُسْـــدٌ جِيـاَعٌ وَلكنْ ليسَ يُشـبِعُهَـا ... إلا لُحُـومُ الـعِـدَى مَـأدُومَـةً بِـدَمِ[١٥٩]

النَّـاشِـــطونَ إلى الهيجـاء تُرْقِصُـــهُمْ ... قَعَـاقِعُ البيضِ لَا القينـاتُ بالنَّغَمِ[١٦٠]

وَالنَّـاظِـمُونَ عِـدَاهُمْ كُـلَّ مـا طَعَنوا ... في السُّمر نظْم الطُّهاةِ اللَّحْمَ في الوَضَم[١٦١]

يَشوونَهم في جَحِيمِ الحَـــربِ توطِئَـــــةً ... لِشَـــيٍّ آخِرِ أَقْوى منـهُ في الجُحُمِ[١٦٢]

تَلقَّى العِدَى في الوغى مِنهُم زَبَانِـــيَّـــةٌ ... تُعَـذِّبُ الخصـــمَ بالخَطِّيِّ والخَـذِمِ[١٦٣]

إذا أرَوهــم عَــذَابَ الحَـربِ ذَكَّـرَهُـم ... عَـذابَ ذي العرشِ في عَـادٍ وَفي إرَمِ[١٦٤]

أَو عَسكَراً بِحصى السِّجِّيلِ حارَبَـــهُـــمْ ... طَيرٌ أَبَابِيـلُ تحْمي البيـتَ في الحرمِ[١٦٥]

أو الشَّـــيَـاطِـينُ تَـفـنَى وَهـي مُحْرَقَـةٌ ... إذْ حـاولـت عِلْمَ غيـبِ اللوح بالرُّجُمِ[١٦٦]

وَكَـمْ لهـم غـارةٌ شَـــعْـواءُ تـتركُ في ... زُجـاجَـةِ الثِّـــرْكِ شِـــعباً غير مُلْتئِمِ[١٦٧]

وبَلدةٍ بِـــظُبَى الأسـيـــافِ تخْرِبُهَـــا ... وَالسَّـــيفُ أعظمُ تَخريبَـاً من الوخَمِ[١٦٨]

وَوقعـــةٍ قَسَمـــوا فِيهَـــا أَعَـــادِيَهـــم ... إلـى أَسـيـرٍ وَمَـقتُـولٍ وَمُنـهَـــزِمِ[١٦٩]

وَالخيـــلُ تـــعـــثُرُ بالخَطِّيِّ مُنكَسِـرَاً ... بِسَـــاحَـةٍ وَحِلَـتْ مِن أَدْمُعٍ وَدَمِ[١٧٠]

وَطبَّقتْ أرضَها الأشلاءُ إذ قَسَمُـــوا ... قَتلَى العِدَى قِســمَةً ضَـيزَى إلى زِيَمِ[١٧١]

---

[١٥٩] مأدومة: من الإدام، وهو الطعام وأراد هنا مطبوخة.

[١٦٠] قعاقع: جمع قعقعة وهي الطرق الشديد، والبيض: اسم لنوع من السيوف الماضية، القينات: جمع قينة وهي المغنية.

[١٦١] الوضم: خشب الجزار التي يوضع عليها اللحم.

[١٦٢] يشوونهم: من الشي وهو الطهي. توطئة: تمهيداً.

[١٦٣] الخطي: نوع من الرماح المنسوبة إلى مرفأ بالبحرين يقال له: الخط، الخذم: القطع.

[١٦٤] عاد وإرم: عاد: قوم نبي الله هود، كفروا فأهلكهم الله بالريح الصرصر، وإرم: مدينتهم التي عمروها يضاهئون بها الجنة.

[١٦٥] أو: عطف على ذكَّرهم: السجيل: النار الملتهبة. أبابيل: جماعات.

[١٦٦] الرُّجُمُ: الشهب التي أرسلها الله ترجم الشياطين لما حاولوا قراءة ما في اللوح المحفوظ من الغيب.

[١٦٧] غارة شعواء: مرت في ٢٨٠، شعباً: الشعب هو الكسر، غير ملتئم: غير ملتحم.

[١٦٨] ظبى الأسياف: حد السيوف. الوخم: نوع من الوباء، والمراد: الأمراض المهلكة.

[١٦٩] ووقعةٍ: أي ربَّ وقعةٍ.

[١٧٠] الخطّي: نوع من الرماح مرت الإشارة إليه في ٢٨٤، وَحِلَت: امتلأت بالوحل.

[١٧١] طبقت: ملأت: الأشلاء: الأحشاء، قسمة ضيزى: قسمة جائرة، زيم: قطع متفاوتة متفرقة.

أجْوِدْ بـــهِمْ بـــقِرى الجيعانِ تُشبعُ مـــــنْ ... لحمِ الخِصَـــامِ خِمَاصَ الوَحشِ وَالرخمِ[١٧٢]

كَمْ هَامَةٍ دُحْرِجَتْ منهم وكـــم بَـــدَنٍ ... تحْتَ السَّـــنَابكِ والأخْفَافِ مُنْحَطِمِ[١٧٣]

وَجُثَّـةٍ فُـكَّ عَنهَـا الرُّوحُ رَاحِلَـــــةً ... مِـن ذَابِـلٍ في محـلِ الـرُّوحِ مُـدَّغـمِ[١٧٤]

وإنما يطـــأُ المـــاشِيْ بهـــا جُثَـــثَـــاً ... خَرَّت على وَجهِهَـا مَقطُوعـةَ الـدُّعُمِ[١٧٥]

ويسـتظِلُّ بِـــــهَا الضَّـــــاحِي بِمُعْتَمَدٍ ... إذ شَـــالَ فوقَ قنَـاهم شـــرُّ مُـدَّعمِ[١٧٦]

حتَّـــى غـــدا بهمُ الإســـــلامُ تحرُسُـه ... أُسـدٌ من السُّـمْرِ والأسـياف في أَجَمِ[١٧٧]

أُسْـــــدٌ براثِنُهـــا سُمْـــرٌ وأَنْيُبُهـــا ... بِيضٌ رَضِـــينَ عن الأَغمَـادِ بالقِمَمِ[١٧٨]

لا تَنجَلي الحربُ إلا بَعـدَمـا ظَفَرَتْ ... فِـيـهـا وَأظفَـارُهَـا مخضُـــوبـةٌ بِـدَمِ

خُـرْسٌ إذا أنـطـقُـوا في كُـلِّ مـعْـرَكَـةٍ ... صُـــمَّ القنَا أبرؤوا الكُفَّارَ من صـــمَمِ[١٧٩]

وأسمَـعُـوا بِـكُـلُـومِ السُّـــمـرِ أمْـرَهُـمُ ... صُـــمَّ الأَعَادِي بلا صَـــوتٍ وَلَا كلمِ[١٨٠]

قـد كَبكَبُوا في الوَغى الغَـاوين فَـانقَلَبُوا ... مَـا بَـين مُـنـهَـزِمٍ مِـنـهُـم وَمـنـخَـطِـمِ[١٨١]

راضُـــوهُمُ بِســـيـاطِ البِيضِ تركبهم ... مَـهـمَـا أَرادُوا بِـلا ســـرْجٍ ولا لُجُمِ[١٨٢]

رَدُّوا جِمـاحَـهُـمُ بالـرُّمْـحِ تَـطـعَـنُـهُـم ... وَالرمح أَشـــنَقُ للجُمَّـاحِ من شُـــكُمِ[١٨٣]

---

[١٧٢] أجود بهم: أعظم بجودهم، قرى الجيعان: ضيافة الجائعين، لحم الخصام: لحوم الأعادي. خماص الوحش: الجوعى من الوحوش، الرخم: جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر.

[١٧٣] الأخفاف: جمع خف، أراد الأقدام، منخطم: مقتول، والخطم هو الضرب على الأنف.

[١٧٤] فُك: أزيل. الذابل: الرمح. مدغم: من الدغم وهو كسر الأنف إلى باطنه هشماً.

[١٧٥] الدعم: جمع دعامة، وهي عماد الشيء. ودعامة الإنسان أضلاعه

[١٧٦] الضاحي: من أصابه حر الشمس، شال: ارتفع. قناهم: رؤوسهم، مدعم: المدعم: الخشب المنصوبة للتعريش.

[١٧٧] السمر: صفة لموصوف محذوف، أراد الأبطال السمر، والعرب تصف المحارب بأنه أسمر تريد أنه دائم الظهور على الخيل حتى اسمرّ وجهه من طول ما لفحته الشمس، وتطلق السُمر أيضاً ويراد بها الرماح، ولعلها مراده، الأجم: الغابات.

[١٧٨] براثن الأسد: مخالبه. والقمم: رؤوس الرجال.

[١٧٩] خرس: أراد أن مقالهم في الحرب بسيوفهم ورماحهم لا بألسنتهم.

[١٨٠] كلوم: جمع كلم وهي الجرح، أراد جراح الرماح السُمر.

[١٨١] كبكبه: ألقاه على وجهه. منخطم: من خطمه إذا ضربه على أنفه بالسيف.

[١٨٢] راضوهم: من الترويض وهو التوطئة والتذليل، مهما أرادو: كلما أرادوا.

[١٨٣] الرجل الجموح: الذي يركب هواه فلا يرد عنه، والأصل أن تطلق على الفرس التي لايكبحها اللجام فتغدو بغير أمر فارسها، والشناق: حبل يجذب به رأس البعير والناقة فيلجمه. وشنقه بمعنى لجمه. والشكيمة من اللجام وهي الحديدة المعترضة في الفم.

بِكـلِّ قَلـبٍ لَهم قَـد خَـابَ مُنكَسِـرٍ ... وَكَـلِّ ظَهرٍ بِوِقرِ العَـارِ مُنقَصِـمِ[184]
وَأَعـيُنٍ قَـد أَطـارَ الـرُّعـبُ غَـفـوَتَهَـا ... فَـلَم تُـنمِهَـا وَلـو في الأَشْـهُـرِ الحُرُمِ
لَمْ يغْمِضُـوا جَفْنَهُم إلا وَأَيقَظَهُم ... بيضٌ تهـدِّدُ، سَـلَّتْهـا يَـدُ الحُلُمِ[185]
صَـالَتْ أُسُـودَاً ولكنْ بَعدَمـا انهزَمُوا ... لَو اسـتَطاعُوا اسـتعارُوا أَرجُلَ الجُذُمِ[186]
ضَـاقـتْ بِهَـا الأرضُ حتَّى إنَّ هَـارِبَهَـا ... وَإِن نَجَـا لَم يجـد بُـدَّاً مِنَ السَّـلَمِ[187]
يَا باغيـاً مِن عِـدَاهُم مِثـلَ مَـا فَعَلُوا ... هَيهَاتَ تطلُبُ معنى الأسْـدِ في الغَنَمِ[188]
أولئـكَ الأُسْـدُ حِزبِي مَنْ يَصُـلْ بهم ... على الضَّـرَاغِمِ في الآجَـامِ لَمْ يَجِمِ[189]
لم أسـتَـغِـثْ بهـمُ في كـلِّ مَـعـرَكَـةٍ ... إلا جَعَلـتُ بِهم ظَهري عَلَى عَلَمِ[190]

الفصل العاشر

أَيا نَسِـيمَ الصَّـبَا إن كُنْتَ تُسْـعِدُني ... بَلِّغْ سَـلَامِي إلى سُـكَّان ذي سَـلَمِ[191]
إن سِـرْتَ يومـاً بسَـلعٍ أو بِكَـاظِمـةٍ ... فَـحِـيِّ عَـنِّي حَـيَّـاً ثَمَّ وَاحـتَرِمِ[192]
وعَـفِّـر الخَـدَّ عَـنِّي بِالـبَـقـيـعِ وزُرْ ... قَـبرَاً حَـوى خَـيرَ خَـلـقِ اللهِ والـتَـزِمِ[193]
وطُـفْ بـهِ بَـدَلاً عَـنِّي بجُـجْـرَتِـهِ ... وَعَـانِقِ الشَّـبْكـةَ الشَّـمَـاءَ والتَثِمِ[194]
وخُـذ معَ القُربِ قَبـلَ البُعـدِ مَـا سَمَحَـت ... بِـهِ يـداهُ مـن الخـيراتِ واغـتَـنِـمِ
وقُـلْ لَـهُ إنَّ نَجمَ الـدِّينِ يسـأَلُكُمْ ... أَن تَجعَلُوهُ مِـنَ الغِلـمَـانِ وَالخَـدَمِ[195]
وأنْ تَـرُدَّ يـدَ الأَعـدَاءِ عـنـهُ كَـمَـا ... ردَّ الـغَـيـورُ يـدَ الأغْـيـارِ عـن حُـرُمِ
وأنْ تُـبَـلِّـغَـه أَقصَـى المِطَـالـبِ فِيْ ... دُنـيَـا وَأُخـرَى، وفي عِـلْـمٍ وفي قَـلَـمِ
لا يُحْسِـنُ الخطبُ أنْ يُزرِي على أحَـدٍ ... بالهـاشمـيِّ أَبِي الـزَّهـرَاءِ مُـعـتَصِـمِ[196]
إذا أَضَـاعَ سِـواهُ المسـتَـجيرَ بِـهِ ... فَـجَـارُهُ جَـارُ عِـزٍّ غَـيرُ مُـهـتَضَـمِ[197]
هَـذِي بِضَـاعَـتي المزْجـاةُ مُـتْـحَـفَـةً ... مِن مَلجَأ الوَجْدِ فَاني الصَّـبرِ محتشـمِ[198]

---

[184] الوقر: الحمل الثقيل.

[198] المزجاة: القليلة. متحفة: مهداة.

هـديـةً دُونَ قـدرِ المصـــطفى قِيَمَـاً ... وَفَوقَ مِقـدارِ مُهـدِيهـا مِن العَجَمِ
مَـا فَـوقَـهَـا مَبلَغٌ لِي فِي الثَّنَـاءِ وِلَا ... تَـرضَ بِمَـا بَـلـغَـتْـهُ طَـاقَـتِيْ هِمَـمِـي
وَلَم أَجـدْ إذ أَجَلـتُ الفِكرَ مُبتَغِيَّـاً ... حَـدَّاً يَفِي حَقَّ مَعنَـاهُ مِنَ العِظمِ[١٩٩]
وَقـاصِـــرُ الوَصْـــفِ عنْ تَعريفِ رُتْبَتِـهِ ... وَصْـمٌ، فَصُـمْ عنه أو صِـفْهُ وَلَا تَصِـمِ[٢٠٠]
مـالي وشـــرحي شـــيئاً ليس يشْـــرَحُهُ ... ذو النطقِ بالقولِ أو ذو الخَطِّ بالقلمِ
وَهُنَّ أَوضَـــحُ مِن ذِكرِي كَمَا وَضَـــحَتْ ... باللـيـلِ نارُ القِرى في قُبَّـةِ العَلَمِ[٢٠١]
وَاللهُ أَنـــزَلَ في الـــقُـــرآنِ يَمْـدَحُـــهُ ... آياً بِأَبـلَـغِ مَـا يُـقـرأَنَ مِـنْ كَـلِـمِ
لـكـنَّ مَـنْ لَم يُـفَـرِّطْ حـين يَمـدَحُـهُ ... بِمَـا اِســـتَـطَـاعَ مِـن الإِطـرَاءِ لَمْ يُـلَـمِ
هَـبْ أَنَّـهـا لَمْ تَـزِدْ مـنْ قَـدْرَه ولَـكَـمْ ... أَبدَا الصِّـقالُ صَـفاءَ الصَّـارِمِ الخَذِمِ[٢٠٢]
لَـذَاكَ أَنْـظُـمُ دُرَّاً قَـد نـثَـرَتُ لَهَـا ... مـنْ أَدْمُـعِ الـعَـينِ دُرَّاً غَـيرَ مُـنْـتَـظَـمِ
كِـلَاهُمَـا دُرَرٌ أَنْـفَـقْـتُ أَرْخصَـــهـا ... في جَلْـبِ مَـا هو أَغلَى مِنـهُ في القِيَمِ

---

[١٨٦] صالت أسوداً: أي بدأت بالمجابهة وهي تزأر كالأسود، استعاروا أرجل الجذم: كناية عن الهرب والجبن. والجذم: الأرانب السراع.

[١٨٧] السّلم: الاستسلام.

[١٨٨] يا باغياً: يا طالباً.

[١٨٩] من يصل: من الصيال وهو المحاربة. الضراغم: الأسود. الآجام: الغابات. لم يجم: لم يصبه الوجوم وهو الهم والحزن.

[١٩٠] إلى علم: إلى جبل شامخ.

[١٩١] نسيم الصبا: مرَّت في البيت الثاني، ذي سلم: اسم موضع المدينة.

[١٩٢] سلع: اسم جبل في المدينة المنورة، حيَّاً: ورد في حاشية النظم أنها اسم قبيلة، ولعلَّ مراد الناظم بـ(حي) النبي صلى الله عليه وسلم، يريد أنه حيٌّ في قبره كما هو الشائع لدى الصوفية.

[١٩٣] عفر الخد: مرَّغه.

[١٩٤] الشبكة الموضع الذي كثرت الآبار فيه، ومنه سميت شبكة الصيد لكثرة ثقوبها، ولعله يريد شباك النبي ﷺ، الشماء: العالية، وفي اللهجة المحلية في القوقاز. الشبكة: هي طربوش الصوف الذي يرتديه القوقازيون.

[١٩٥] نجم الدين: هو الناظم نفسه رحمه الله، وقد تقدمت ترجمته في مطلع القصيدة.

[١٩٦] لا يُحسنُ الخطب: أراد أن الخطوب وهي المصائب لا تستطيع أن تهين رجلاً يعتصم بالنبي ﷺ.

[١٩٧] مهتضم: مأكول. وأراد هنا غير مغلوب وغير خاسر.

[١٩٨] المزجاة: القليلة. متحفة: مهداة.

[١٩٩] أجلت الفكر: تجولت بفكري.

[٢٠٠] الوصم: العيب والعار، أراد أن المدح القاصر عيب، فاترك الوصف القاصر أو صفه بالوصف الذي لا وصم فيه.

[٢٠١] قبة العلم: قمة الجبل.

[٢٠٢] الصقال: الصقل والشحذ. الصارم الخذم: السيف القاطع.

صَـــلَّى عَليـهِ إلَـهُ الخَلقِ مَـا بَزَغَـتْ ... شَمسُ الرِّســـالَـةِ تَمحو غَيهَـبَ الظُّلَمِ[٢٠٣]

وحَنَّ نحو الحِجَـازِ النُوقُ تُرقِصُـــهَـا ... حُـداتُهـا بِمَـلِـيـحِ الـلَّـحـنِ والـنَّـغَـمِ

يا رَبُّ وَارضَ عَـن الأَصـــحَـابِ إنهُمُ ... زُهْرُ النُّجومِ هُـداةُ النَّـاسِ في الظُلَمِ

لَاسِـــيَّمَـا عَـن أَبي بَـكـرٍ خَـليـفَـتِـهِ ... وَخـيرِهـم بـعـدَ خـيرِ الخـلـقِ كُـلِّـهِـمِ

وَعن أبي حَفصٍ الفَـارُوقِ صَـــاحِبُـهِ ... ليثٍ لدى الحربِ ثبْتِ القلبِ والقدَمِ[٢٠٤]

وَعـن خـليـفـتـهِ عُـثـمـانَ أبْســـطِـهِمْ ... كَفَّاً إذا ضَـــاقَ جَيشُ العُسْـــرِ من عُدُمِ

وَعن عليٍّ أبي السِّـــبطَينِ أَشـــجَعِهِم ... وَأعرفِ الصَّـــحبِ بالأَحْكَامِ والحِكَمِ[٢٠٥]

وآلـــهِ وذوي قُـــربَاهُ قَـــاطِـــبَـــةً ... أهـلِ الـنُّـهَـى وَالهُـدَى وَالـعِـزِّ وَالـكَـرمِ

وَاغفرْ كَبَـائِر ذَنبي وَهي إنْ كَبُرَتْ ... في جنْـبِ عفْوِكَ يا غفَّـارُ كـاللَّمَمِ[٢٠٦]

وَاجـعَـلْ إلَهـي جَـزائِـي مِـنـكَ رُؤيَـتَـهُ ... يـومَ الـقِـيَـامَـةِ يُـنـجِـيـني مِـن الـرَّقَـمِ[٢٠٧]

وَانـقَـعْ غَـدَاً غُـلِّـتي مـن مَـاءِ كـوثَـرِه ... كَمَـا سَـــقَـانِيـه يا رحمنُ في الحُلُمِ[٢٠٨]

وَاجـعَـلْ جَمـيـلَ جَمـيـعَ المِـادِحـينَ لَـهُ ... جـيرانَـهُ في جِـنَـانِ الخُـلْـدِ والـنِّـعَـمِ

وَاجـعـل لأمَّـتِـهِ مـن كـرْبِهـم فَـرَجـاً ... وَطَـالَـمَـا أَغْـرقَـتْـهـمْ أبْحُـرُ الـنَّـدَمِ

وَارزقـهُـمُ رَحمَـةً عُـظـمَـى تُـبَشِّـــرُهـم ... بَعدَ الشَّـــتَاتِ بِشَـــملٍ غَيرَ مُنْفَصِـــمِ

تُـظِـلُّـهُـم بـظـلالِ الـعـرْشِ آمِـنَـةً ... من الـعـذابِ أمَـانَ الـوحشِ في الحرَمِ

وظِـلِّ رايـتـهِ الخضـــراءِ رافِـلَـةً ... عَـلَـيـهُـم وَعَـلى الـنَّـاجـينَ من أُمَـمِ[٢٠٩]

وَانـظُـرْهُـمُ نَـظـرَةً أُخـرَى تـؤلِّـفُـهُـمْ ... عَـلى طَـريقِ الهُـدى المنجِيْ من النِّقَـمِ

---

[٢٠٣] غيهب الظلم: سواد الظلمة.

[٢٠٤] ثبت القلم والقدم: ثابت القلب والقدم.

[٢٠٥] السبط: ولد الابن أو البنت، والمراد بالسبطين الحسن والحسين عليهما السلام.

[٢٠٦] اللَمم: صغار الذنوب.

[٢٠٧] الرَّقم: المصائب الداهية.

[٢٠٨] النقع: الريّ، والغلة: شدة العطش، وانقع غلتي: أرو عطشي.

[٢٠٩] رافلة: خافقة وأصل الرفل التبختر، وأما تنكيره لفظ أمم فغير حكيم، وكان حقه أن يعرفه، ولو قال: الناجين في الأمم لكان أحكم، ولعل مراده: الناجين من أمم: أي من قريب!

وَجـــدِّدَنْ لَهُـــم الإِيمَـــانَ إِنَّهُـــمُ مِـن قِـلَـةِ الأَمـنِ وَالإِيمـانِ في ظُـلَـمِ
وَاغـفـرْ لَهـمْ ثُمَّ أَصـــلِحْ ذَاتَ بِينـهِمُ مَـعـمُـورَةً بِالـغِـنَى وَالـعِـلْـمِ وَالحِـكَـمِ
وَأَخْمِـدِ الـبَـغْـيَ وَالـعُـدوَانَ بَـيـنَـهُـمُ بِالعَـدلِ واعـدِلْ بهم عن مَزلَقِ القَـدَمِ
وَرَوِّجَـنْ هـذه الأمـدَاحَ تُـنْشِـــرُهَـا مَشـــهورَةَ الصِّـــيتِ بينَ العُربِ والعَجَمِ
مَصـــحُوبَـةً بِفُـيوضٍ منـكَ مُحْيِيَـةً قُـلُـوبَهـم كَـحـيـاةِ الأرضِ بالـدِّيَمِ[٢١٠]
وَاجـعـلْ تِـلَاوَتَهَـا وِردَاً لِأُمَّـتِـهِ أَحلى منَ العَسَـــلِ الصَّـــافِي بِكُـلِّ فَمِ
وَآتِـيَنْ مَـنْ تَـلَاهـا ثمَّ سّـــامِـعَـهَـا ومَنْ يُطَـالِعُهَـا مِن فَضـــلِـكَ العَمِمِ
وَاحفَظْ إِلهِيَ مَنْ يَســـعَى لِيَنشُـــرَهـا خَـطَّـاً وَطَـبـعَـاً مِـن الإِمـلَاقِ وَالـنِّـقَـمِ

[٢١٠] فيوض: جمع فيض وهي في الأصل الماء إذا فاض حتى سال في الوادي، ثم استعملت في كل خير كثير، الديم: المطر.

قصيدة
الأشواق والترياق

نظم الشاعر الداغستاني العاشق

نجم الدين بن محمد بن دنوغونة

(قصيدة منتخبة من ديوانه)

الأشواق والترياق

للهِ مَـا أَنَا مِـن سُـــمِّ الهَـوَى لَاقٍ ... هَـل بالتَّـلاقِـي الَّـذي أَهـوَاهُ لي راقِ[1]

فَـمَـا لِهَـذَا الهَـوَى الـعُـذْرِيِّ عَـذَّبَـنِي ... بِـكُـلِّ نَـوعِ عَـذابٍ دُون إِزهَـاقِ[2]

فَكَم أُقَاسِـــي الليالي السُّـــودَ أَسْـــهَرُهَا ... أُقـلِّـبُ الـطَّـرفَ في أَرجَـاءِ آفَـاقِ

أَرعَـى لِأَنجُمِهَـا فِي الجُنُـــحِ سَـــائِمَـةً ... عَطَّـــلْـــتُها هَمَلاً مِن بَعدِ إِشـرَاقِ[3]

وَالصَّـــبرُ يُوجِـــدُني وَالـــوَجدُ يعدِمـــني ... وَالـنَّـاسُ تَجـهَـلُ مَـا دَائِـي وَتِـرياقِـي

مِن مَوجِ دَمعِي وَنَارِ الوجْدِ لِـــي أَبَداً ... عُـــقُـــوبَـــتَـــانِ بِإغـــرَاقٍ وَإِحـــرَاقِ[4]

سَـــاءَا عَذَابَـــاً وَلكـــن سيَّمـــا لِفَتَـى ... باقٍ، وَمَـا مِـنـهُـمـا يَـومَـاً لَـهُ وَاقِ[5]

كِلَاهُما تَـارِكِـي كالـرِّيـشِ أقلقـــه ... بالصفصفِ القاعِ ريحٌ أي إقـــلاقِ[6]

والوجـدُ يخرجُ من زِنْـدِ الحَشـــى شَـــرَاراً ... قَـدحَـاً فَـيَـحـرَقُ قَـلبي مِـثـلَ حـرَّاقِ

وَلَـــم أَهِـــمْ بِسُلَيمَـــى أَو سعـــاد وَلا ... في ســـائرِ العربِ الأَترَابِ أَشـــوَاقِي

بَل لَيـــس ثَمَّ سِـوى أَني نَظَـــرتُ إلى ... بَـرقٍ عـلـى الـعـلـم الـغـربِيّ خَـفَّـاقِ[7]

فَيَـــا لَهُ مِن وَميضِ الـــبرقِ ذَكَّـــرَني ... سَـــنَـا مُحيَّـاً بِـنـورِ الحُسـنِ بَـرَّاقِ

سَنَـــا مُحيَّـــا رَســـولٍ لَا مِثَـــالَ لَـــهُ ... في حسـنِ خلقٍ وَلا في طيب أَخـــلَاق

مَـــا لَاحَ لِـــي ضَـــوؤُهُ إلا أَجَبـــتُ لَـــهُ ... بِسَـــائِـلٍ مِـن دُمُـوعِ الـعَـينِ مِـهـرَاقِ

---

[1] راقٍ: اسم منقوص من الرقية،وهي في الأصل التميمة يقرؤها الرجل بغرض الشفاء، ثم غلب إطلاقها على وسائل العلاج، فالكلمة هنا بمعنى: الطبيب.

[2] يريد أن الهوى يعذبني من غير أن يزهق روحي فيريحني من الحياة.

[3] سائمة: صفة لنفس الشاعر، أراد أننفسه تعلقت بالمحبوب فأصبحت هائمة سائمة عاطلة من بعد أن أشرقت من قبل بالمعرفة والنجاح.

[4] أراد أنه عوقب على تعقه بالمحبوب عقابين اثنين: الغرق بماء الدموع والحرق بنار الوجد.

[5] السيما: بالتشديد، العلاقة، أي إن نار الوجد والدمع أصبحا سيمة باقية لفتى الأشواق.

[6] الصفصف القاع: الأرض المستوية الواطئة، وهو اقتباس لطيف من الذكر العزيز: فيذرها قاعاً صفصفاً.

[7] العلم الغربي: الجبل الغربي، ولم يظهر لي وجه في هذه التسمية، ولعله أراد الإلماح إلى تكليم الله لموسى على الجبل الغربي، (ما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر)، فجعل الجبل الغربي ميقاتاً للعشاق، ويكن أن يقال: الغارب هو العالي النازح عن الناس.

بَـل شِمْتُـهُ وَضـــلوعي وَالـدُّموعُ غَـدَتْ ... يُـنســـيـنَـنِي كُـلَّ خـفَّـاقِ ودفَّـاقِ[8]

إذا توقَّـدَ قلـبي بالهـــوى خَرَجَـــتْ ... محـابِـسُ الـدَّمـعِ مـن عـيـني بإطـلاقِ

وَلَمْ أجدْ بعده صَحـــوَاً، ومـــــن عجب ... ســـكران ليسَ لـه خمرٌ ولا سَـــاقِ

يَا لائمي في الهوى سُكري فَمَعـــذِرَتِـي ... إنّي سَـــكرتُ وَلكن سُـــكْرَ عشَّـــاقِ

وَمـــن يكن في هـــوى المختَـــارِ سُكرَتُهم ... فهم وَإنْ سَـــكِرُوا ليســـوا بِفُسَّـــاقِ

ومَنْ درى شِيَـــمَ المختـــارِ ثُـــمَّ غَـــدَا ... إلى فســـيحِ حمـاهُ غَيرَ مُشـــتـاقِ؟[9]

يا سيِّـــــدي أنتَ بعـــدَ اللهِ لـــي سندٌ ... في كفِّكَ الرَّحبِ مُفتَاحِي ومِغـــــلَاقِي

لَا يبتغـــــي المرتَجـــــي مِن رَاحتيكَ غِنى ... إلا وَأَطـلـقَـتـهُ مِـن قَـيـدِ إمـلاقِ[10]

يَا فَاتِـــحَ الرَّاحـــةِ الرَّحـــرَاحِ يبسُـــطها ... في كُـلِّ مَحْـلٍ لـذي فـقـرٍ بإنـفـاقِ[11]

والمؤمـــنُ العائـــذُ المرعـــوبُ يدخلـــــه ... إلى منيعِ الحِمَى من غيرِ إشـــفـاقِ

أقـــومُ فـــي بابِـــكَ المفتـــــوحِ ذا أَمَلٍ ... أرجـو بِكُـم من عـذابِ اللهِ إعـتـاقِي

وأستغيثُـــك فـــي دَائـــي العُضَـــــالِ إذا ... لم يـبـقَ مِـنِّي إلا عُشْـــــرُ أَرمَـاقِـي[12]

أستغفـــرُ اللهَ مِمَّـــــا كنـــتُ مُقـــتَرِفَـــاً ... من كـلِّ ذنـبٍ من الرِّضـــوان عوَّاقِ

كـم حـالَ دونَ مراضـــى اللهِ تحلـؤني ... عنهـا بشـــوكتهـا أضـــرابُ أعواقِ[13]

حتَّـــى أَتيـــتُ رَسُـــولَ اللهِ مُشـــتَـــكِياً ... والغِـلُّ في عُنقِي وَالقَيـدُ في سَـــاقِي

إذْ ناءَ بِـــيْ وقرُ فقـــري ثُـــمَ أَثقَلَـــني ... مـغـارِمٌ حَمَّـلـوهـا فـوق أعـنـاقـي[14]

يا خيرَ من نـــزلَ العافـــونَ ساحتَـــــهُ ... وبادَروهـا عـلـى خـيـلٍ وأنْـوَاقِ[15]

---

[8] شمته: أحسسته.

[9] في الأصل (غنا) ولم أجد له وجهاً، والبيت استفهام استنكاري معناه: من ذا الذي يدري شيم المختار وشمائله ثم لا يغدو مشتاقاً إلى نسيم حماه؟

[10] الإملاق: الفقر.

[11] الرحراح: المتسع، وأكثر استخدامها في البستان الواسع غير المسوَّر، والمحل: سنوات القحط والجفاف.

[12] أرماق: جمع رمق، وهو بقية الحياة.

[13] تحلؤني: حلأ بالسيف والعصا إذا ضرب به، أضراب أعواق: جمع ضرب وجمع عوق، أراد أنواع المعاصي التي تعوق من بلوغ منزلة الرضوان.

[14] وقر فقري: الوقر الثقيل المضني.

[15] العافون: السائلون.

هَيهَـــــــاتَ أنْ تَحـــلأَ الوُرَّادَ عن شُرَعٍ ... أو تُغلِقَ البـابَ يومـاً دونَ طَرّاقِ[16]

وأنـتَ أوفَى الـوَرَى عَـهـدَاً وَأكـرَمُـهـم ... لـولاكَ مـا خُلِقَ الفَـانِي وَلَا البَـاقـي

عرجْـــتَ تَخترِقُ السَّبْـــعَ الشِّـــدَادَ إلى ... مرقى تقـاصَـــرَ عنـهُ قبْلَـكَ الرَّاقي

ونلتَ في القربِ قَـــــدرَاً ليـــــسَ يعلَمُهُ ... على الحقيقـةِ غيرُ الواحـدِ البَـاقي

وعـــدتَ مـــن عنـــدهِ ربَّانَ من حِكَمٍ ... شَـــرِبْـتَ أبحُرَهَـا والخَـالِقُ السَّـــاقِيْ

أتيـــتَ ثَـمَّ عُلُـومَاً ليـسَ يَـضْـبِـطُها ... ذَوُو الخُـطـوطِ بأنْـقَـاسٍ وأوْرَاقٍ[17]

عنايـــةُ اللهِ مـــــن بينِ العَوالِمِ قَـــدْ ... قَضَـــتْ بِـذاكَ لَـهُ في يومِ مِيثَـاقِ

مَـدحِي جَنَـابِـكَ يا خيرَ الورى سَـــبَبٌ ... أَغنَى بـهِ عنـد إفـلَاسِـــي وَإمـلَاقي

وعلـــةٌ لـــم أزَلْ أرجُـــو بهـــا فَرَجـــاً ... في كُـربـتي وأمـانِيَّ يـومَ إشـــنَـاقِي[18]

فما تمحَّـــضَ شِعـــري فـــي مَدائِحِهِ ... إلاَّ تـــفـــتَّـــحَ لي أبـــوابُ أرزَاقِ

نـــذرتُ لله بعـــدَ اليَـــوْمِ مَـدحَـكُمُ ... فســـوفَ أصـــرِفُ فيـه عمري البَـاقي

هَبْـني استـعرتُ لَـهُ فـي كُـلِّ قَافِيَـةٍ ... مِـنَ الـغَـوانِي غَـوالِي دُرِّ أطْـواقِ

ثُـــمَّ استـــعنتُ لـــه فـــي العـــالمينَ بِمَنْ ... يُهـذِّبُ الشِّـــعْرَ مِنْ أحزابِ حُـذَّاقِ[19]

فَسَـــارَ سِـــحْرَاً حَوى في بحرِهِ حِكَمَاً ... شَـــتَّى تُهـدِّدُ لُـقـمَـانَاً بإغـراقِ

حتَّى غَـدَا كـلُّ حَرْفٍ منه يُـــــفْحمهم ... بكُـلِّ معنىً إلى الإعـجـازِ سَـــيَّـاقِ

تَرَى العَنَـــادِلَ تعيَـــى حـــينَ تسمَـــعُهُ ... وتخـتـفـي خـجـلاً في خِـدْرِ أوراقِ

ما زادَهُ شـــرفاً شعْـــري ولا عَجَـــبٌ ... هـلْ زادَ بالمِدْحِ ضَـــوءاً نورُ إشـــراقِ؟

---

[16] تحلأ الوراد: الوراد جمع وارد، طالب السقيا، وتحلأ الوراد: تضربهم وتطردهم، شرعاً: شرع الوارد: إذا تناول الماء بفيه والمراد: حاشاك أن تطرد العطاش عن معينك الصافي المشروع لكل وارد، طراق: جمع طارق وهي في الأصل: زائر الليل، وهنا جاءت لمعنى أي سائل.

[17] النقس: المداد، ويطلفق على كل ما يكتب به.

[18] يوم إشناقي: الإشناق: هو تعليق اليد بالعنق، وهو تصوير لحال العباد يوم القيامة: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ يجيء ويده مغلولة إلى عنقه من وراء ظهره.

[19] أحزاب: جمع حزب، وحذاق جمع حاذق وهو العارف الخبير، والمراد خيرة العارفين بالشعر من سائر الأحزاب، العنادل: جمع عندليب، أو جمع أمرأة عندله، فالعندليب: طائر يصوت ألواناً مشهور بحسن صوته، والعندله: المرأة ضخمة الثديين، والمعنيان محتملان.

والحذر: الستر. والأبيات الستة من ((٤٣ – ٤٨)) في بيان المعنى متكامل هاك بسطه: هب أنني استعرت أغلى الأطواق والدرر من أجل أن أنظمها شعراً في مدح النبي وكذلك استعنت بكل الحذافين من الشعراء علىاختلاف ميولهم وأصبح شعري يفيض حكماً بالغة كالحر يغرق فيها لقمان الحكيم.

وأصبح لكل حرف منها اعجاز مدهش تختفي منه العنادل في خدورها فإن ذلك كله لا يزيده شرفاً ولا نوراً لأنه منبع الشرف والنور.

لكِنْ سجـــيةُ نفـــسٍ كـــادَ يُحْـــرِقُها ... نارُ الجَوى عـالجَـتْ من حرّ أشـــواقِ
فحرَّكـــت أبحـــرَ الأذْكَـــارِ ناشـــرَةً ... نـفـيـسَ لُـؤلُـئِـهَـا مِـنْ طـيّ أَعْـمَـاقِ
حتَّـــى غـــدت كلمـــاتي كُلُّهـــا دُرَرَاً ... لـو بِعْنَ أَنفَقـتُ فيـهـا كُـلَّ أَعـلاقِ
أزيـرُهـــا قُرَشـــيَّـاً فـــي أَسِـــرَّته ... نـورٌ ومِـنْ راحَـتـيـه مَحـوُ إمـلَاقِ[20]
هديـــةً لرســـولٍ طَـــابَ عُنْصُـــرُه ... وَزَانَـــهُ طـيـبُ أغصـــانٍ وأوراقِ
جواهِـــــراً بســـــواهُ غـــيرُ لائقـــةٍ ... وَهـل تـلـيـقُ الحُـلَـى إلاَّ بأَعْـنَـاقِ
كَتَبتُـــــــها وَمِـــدَادي من سَوادِ دُجىً ... أدافَ فَـحـمَـتَـهُ أَمـوَاهُ آمـاقِ[21]
هـوَ الـذي أيَّـدَ الـرَّحـمنُ جـانِبَـــهُ ... بِكُـلِّ ليـثٍ إلى الغَـارَاتِ ســبَّـاقِ
يقضُـــونَ بالعَـــدْلِ لكنْ ما جزاؤهم ... لِـمُـنْـكِـرِ الحَـقِّ إلاَّ حَـزُّ أَعـنـاقِ
تعـصى أكفُّهُـمُ بالبيـضِ بارقـــةً ... والحربُ قـائمـةٌ يوَمـاً على سَـــاقِ[22]
مِـــن كُلِّ مُسْـعِرِ حـــرب في ملاحِمه ... إلى لُحومِ أعـادي الـدِّينِ مُشْـتَـاقِ[23]
يَصُـــوُل أروعَ فـــي عرنينـــه شَمَـــمٌ ... بصَـــارمٍ لِـرُؤوسِ الصَّـــيْـدِ فـلَّاقِ[24]
من كُـلِّ كَهْـل شـــديـدِ الكـاهلينِ لَـهُ ... نشـــاطُ شـــابٍ طَرِيِّ اللَّحْمِ غَرْنَاقِ[25]
وكـــلِّ شـــابٍ وقـــورٍ فـي تَقَلُّبِـــهِ ... كـأنَّـه الـكَـهْـلُ في حِـلْـمٍ وإطْـرَاقِ

---

[20] يشبه هذا البيت ماقاله الشاعر نفسه في ميميته السالفة:

أزيرها هاشمياً في أسرته ... نور ومن راحتيه منبع الكرم

أزيرها: من الزور، وهو السير الشديد مع الشرق، أراد أنني أحمل هذه المدائح إلى النبي مكللة بالشوق.

[21] أدافَ: مزج وخلط، أراد أنني كتبت أشواقي هذه بمداد من سواد الليل ممزوجاً بمياه آما في ودموعي، والآماق: جمع ومق وهو منبع الدمع في العين، وهو أيضاً: الحب دون ريبة.

[22] تعطى أكفهم بالبيض: تضرب بالسيوف، ويقال عصي بعصا: أي لعب بها كما يلعب بالسيف، ومراده أن السيوف مطواعة لهم في أيديهم.

[23] وهذا البيت يشبه البيت قوله في ميميته السالفة:

من كل مسعر حرب في ملاحمه ... إلى لحوم عدا خير الورى لحِمِ

ومسعر الحرب: مشعلها.

[24] الأروع: الرجل الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد، العرنين: الأنف، بل ذروة الأنف تحت مجتمع الحاجبين حيث يتبدَّى الشمم والإباء، والصارم: السيف الماضي.

[25] شديد الكاهلين: شديد الكتفين، غرناق: شاب غرناق وغرنوق: شاب أبيض مكتمل جميل.

ساقه تلتف بالساق: تعبير قرآني ﴿والتفت الساق بالساق﴾ إشارة إلى عجزهم عن فعل أي شيء في مقاومة فرسان الصحابة، كأنما ربطت أرجلهم بعضها ببعض.

ترى السمـــاءَ بغيـــمٍ مـــن غبـــارهِـــمُ ســـــوداءَ مـــغـــبرةً أَرجـــاءَ آفَـــاقِ
والكُفْـــــرُ مـــا بيـــنَ مستَـــلْقٍ ومُنْبَطِحٍ وقـــائـــمٍ ســـــاقُـــهُ تَـلـتَـفُّ بالسَّـــــاقِ
جَابُـــــــوا مـــــع اللَّيْلِ أَغفَالاً فعرضتهم عنـــدَ السَّـــري قـــائِمٌ مجهولُ أعمـــاقِ[٢٦]
تراهُـــمْ ناعـــسي الأَجفـــانِ آمِنَـــــةً في الحربِ، والحربُ في هَوْلٍ وإقـــــلاقِ[٢٧]
أمّـــا العِـــدىْ فسُـــكارى مِـــنْ لقائِهِمُ لا سُـــكْرَ خَمْرٍ ولكِنْ سُـــكْرَ غَسَّـــاقِ[٢٨]
حَثُّـــوا النَّجـــاءَ إذا فـــروا فهـــــارِبُهُـــمْ يُنْســـيكَ في عدوهِ عمرو بـــــنَ برَّاقِ[٢٩]
فَرُّوا وقـــد عَلِمُوا أَنْ ليس عنـــدهُمُ مِـنَ العِـدَى في الوغى مُغْنٍ ولا وَاقِ
لم يبقَ منهم سِـــوى أشـــلاء شـــائلةٍ بهـــا الـــطـــيـــورُ إلى أنحَـــاء آفـــاقِ[٣٠]
يا ربِّ صلِّ على سِرِّ الوجودِ، ومَـــــــنْ لـولاهُ مـا خُـلِـقَ الـفـاني ولا الـبـاقـي
صـــلَّى عليك إلهُ الخلقِ ما صـــدَحَـــــتْ تَـبْـكـي الأَلـيـفَ حَمَـامٌ ذاتُ أطـواقِ[٣١]
وما ترنَّـــــحتِ الأغصـــــانُ مائســـــةً من حلَّتَيْ سُـــنْدُسٍ من خُضْـــرِ أَوْرَاقِ[٣٢]
والآلِ والصَّحبِ والأتباعِ ما انفَجَـــــرَتْ بالـــدَّمعِ ســـــاهرةً أجفـــانُ عُشـــــاقِ

تمت القصيدة النجمية
في مدح الحضرة النبوية
للشاعر المفلق نجم الدين الحزّي

[٢٦] جابوا: قطعوا وخرقوا، أغفال: جمع غافل، وأكثر ما تطلقها العرب على الصيد، فتقول: صاد أغفالاً، أي هو صاحٍ لهم وهم غافلون عنه.

[٢٧] ناعس الأجفان: من النعاس، والنعاس في الحرب محمود، لأنه علامة الظفر والأمن،إذ الخائف لا ينعس، قال تعالى: {إذ يغشيكم النعاس أمنة منه}.

[٢٨] الغساق: ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه، وفي الأصل (عساق) وهو تصحيف.

[٢٩] حثوا النجاء: قصدوا النجاة.

عمرو بن براق: هو عمرو بن الحارث النهمي ويعرف بابن براقة وهي أمه، شاعر همدان قبل الإسلام، اشتهر بسرعة عدوه، عاش إلى أيام عمر.

[٣٠] أشلاء شائلة : قطع أجسادهم مبعثرة.

[٣١] الأليف: الحبيب.

[٣٢] مائسة: من الميس وهو الرقص.

قصيدة

الأشواق والمزامير

نظم الشاعر الداغستاني العاشق

نجم الدين بن محمد بن دنوغونة

(قصيدة منتخبة من ديوانه)

الأشواق والمزامير

لا ينفعُ المرءَ في دُنياه تَدبيرُ ... إلاَّ إذا ساعدَ التدبيرَ تقديرُ

وليسَ يُنجِيهِ عن حِكَمِ الإلَهِ وَمَا ... قَضَاهُ جِدٌّ ولا يُجدِيهِ تَحذِيرُ

واللهُ في عَالَمِ الإمكَانِ عَادَتُهُ ... لِحِكمَةٍ حَارَ فِيهَا العَقْلَ تَعييرُ

وَمَا الحيَاةُ وَإنْ طَالَتْ سِوَى عِبَر ... لَهُنَّ في عَرَصاتِ الحَشرِ تَعبيرُ

وإنَّ زهرتها رُؤيا سيظهَر في ... تأويلِها أَنَّها زُورٌ وَتزويرُ[1]

وكلُّ حيٍّ من الدُّنيا له سَفَرٌ ... وما لَه بحثيثِ السَّعيِ تَقْصيرُ[2]

من ذا الذي عاشَ في الدنيا على دَعَةٍ ... ولم يجرِّبْهُ تَيسِيرٌ وَتعسِيرُ

وأيُّ مصباحِ نَجْمٍ غيرُ مُنْطَفِىءٍ ... وَغايةُ الشمسِ إطفاءُ وتكويرُ

كَم للمُنى وَالمنايا في اختلَافِهِما ... في مُدَّة العُمْر تَطويلٌ وَتقصيرُ

فالقصرُ وَالقبرُ مَوقوتٌ مقامُهما ... بمدَّةٍ حَدَّها في اللَّوحِ تقديرُ

فكلُّ ساكنِ دارٍ فهو مرتحلٌ ... يوماً وإنْ سوَّفَ التِّرْحَالَ تَأْخِيرُ

وكلُّ يومٍ مضَى أدناهُ مرحلَةً ... قهراً إلى القَبْرِ لا يقصيهِ تدبيرُ

فَنبَّه الموتُ منهم حينَ يطرقُهم ... مَن لم يُنبهُهُم وعظٌ وتذكيرُ

وأفهمَتهم من القرآنِ ضبطتُهُ ... لُغزاً تحيَّرَ في معناهُ تفسيرُ[3]

حتَّى غدا بعد درسِ اللحدِ مُلْحدُهم ... كأنه وهو في التوحيد نحريرُ

والنفسُ تأمرُ أو تنهَى لها أبداً ... في الشَّرِّ والخيرِ إغراءٌ وتحذيرُ

---

[1] زهرتها: زهرة الحياة الدنيا ومباهجها

[2] القير والقار: لغتان، وهو الزفت الأسود الذي تطلى به السفن.

[3] ضبطته: دقته وإعجازه.

وعـــن قريـــبٍ تـــقـــومُ الخَـــلْقُ يحشُرُهم ... مـــن لا يخـــادِعُـــهـــم مَـكـــرٌ وتـــزويـــرُ
يَجزى العبـــادَ على الأعمـــالِ ليسَ لـــهُ ... إلاَّ على حَسَـــــبِ التَّقصـــيرِ تعـــذيرُ
ليبعثـــــن غَـــــداً غُـــرَّاً تُكلِّمـــهـــــم ... أيـــديـــهُـــمُ بـــكـــلامٍ فـــيـــهِ تخـــبـــيرُ
حتَّـــى لقـــد شهـــدَتْ أعضَاؤُهم ولها ... هـنـــاكَ إذ خـرســـوا نـطـقٌ وتـعـبـيرُ
لكـــنَّ معصيـــةَ المخلـــوقِ ليـــسَ بهـــا ... لـبـحـرِ رحـمـةِ ربِّ الـعـرشِ تـكـديـرُ
فكـــلُّ مـــا جَـــرَياتِ الكـــونِ ثابِتَـــةٌ ... في اللَّـوحِ لـيـسَ لهـا في الـلـوحِ تـغـيـرُ
والعمـــرُ معـــترَكُ الأحـــــوالِ يلْحَقُ في ... أثـنـائـهِ الحـيَّ تحـذيـرٌ وتـبـشـــيـرُ
والـــمـــرءُ فـــي حالَتَي دنيـــــاهُ يفتِنُـــــهُ ... في المـالِ والأهـلِ تـقـلـيـلٌ وتـكـثـيرُ
وعـــائـــــبٌ عـــابني لـــما عَثَـــرْتُ ومـــا ... لي في الـعـثـورِ وأيْمُ الله تـقـصـــيرُ
ورُبَّ عـــاثـــرِ قـــومٍ لا تـــقـــولُ لـــه ... لـفـظـاً يـطـولُ بـهِ في الـقـوم تـعـيـرُ
قـومـي الأُلَى أوقـعـوني في الـبـلاءِ وقـد ... يجري على مقتضـــى الإيقـاعِ تقـدير
حـتَّى لـقـد كســـروا قـلـبي إذا خـبروا ... عـلـيَّ فـيـمـا لحـرٍّ فـيـهِ تـنـجـيرُ
مـا كـان من كثرةِ الطـاعـاتِ يفضـــلُهُم ... لكنْ بشـــيءٍ لَـهُ في الصَّـــــدرِ توقيرُ
مـن عـاشَ والـذكـرُ هـجـيراهُ عـجَّـلَـهُ ... إلى المـكـارمِ والخـيراتِ تهـجـيرُ[٤]
فـذاكَ كـلُّ شـــحيحٍ ظنَّ منْ سَـــفَـهٍ ... إنَّ السَّـــخَـاوةَ إســـرافٌ وتـبـذيـرُ
وكـلُّ فـظٍّ عـبـوسٍ حـينَ نســـأَلـهُ ... يزيـدُ خـدَّيْـهِ شـيـئـاً منـه تصـعيرُ[٥]
كم غزوةٍ قلـتُ فيهـا حينَ أنفق مـا ... ملكتُـهُ بعـدمـا ضَـــنَّ الميـاسِـــيرُ[٦]
حســـبي من المـالِ ربِّي والرَّســـولُ فَمَـا ... لـغـيـرِ ربِّي إغـنـاءٌ وتـفـقـيرُ
يا خـيرَ جـاءٍ لخـيرِ الـعـالمـينَ لـه ... مـن جـارهِ حـرمـةٌ تُـرجـى وتـوقـيرُ[٧]
كُنْ لي شـــفيعـاً معينـاً في مُنـاي إذا ... لم يُجـدني الجـدُّ في بـؤسٍ وتـدبـيرُ

---

[٤] هجيراه: بتشديد الجيم: دأبه وعادته، وفي حديث عمر رضي الله عنه: ما له هجيرى غيرها.

[٥] تصعير الخد: الصعر ميل في الوجه، وقيل بل في الخد خاصة، وهو انقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، وهو قبح مشين.

[٦] ضن المياسر: المياسر جمع موسر، والمراد انفقت وأنا مقل حينما بخل الأغنياء.

[٧] جاءٍ: اسم فاعل من المجيء وهو قليل الاستعمال .

لعلَّ يخرجُ لي إنْ فُهتَ تتبَعُ لي ... لنصرتي نَفَسٌ من فيه معطيرُ[٨]

وطالما قمت في باب الرسول ولي ... إليهِ في الضيق من شَكواى تكثيرُ

كم لي إلى جاهه شكوى يُبَثُّ له ... في قلبِ ذي الرَّحمةِ الحنَّان تأثيرُ

أدعو إليهِ وأخشى أنْ سيُسْئِمُهُ ... تجديديَ العرضَ في عسرٍ وتكريرُ

يا أحكمَ الصَّحْبِ هلَّا ما تُفرّحُني ... مِنَ الرسول بما لِي فيهِ تبشيرُ[٩]

هيهاتَ أن تزجراني إذْ رجوتُكما ... في العُسْرِ إلا بما لِي فيهِ تيسير

قد جئتُكم بذنوبٍ أوجبَتْ تلَفي ... لها مِنَ النَّفسِ والشيطان تزويرُ

يا صاحبَيْ غارِ ثورٍ حيثُ ثارَ لَهم ... كطالبي الثأرِ إذْ سارَ الخنازيرُ

يا ليتَني كنتُ حيَّاً في حياتِكُمُ ... حتَّى أفوزَ بما لِي فيهِ تطهيرُ

أو لَيْتَني كنتُ كلباً دونَ غارِكُمُ ... كأنَّني بوحيدِ الكهفِ قطميرُ[١٠]

أو كانَ منِّي لكم كابنِ الأُريقظ مَنْ ... قد دلَّكُمْ من طريقِ البَحرِ شمِّيرُ[١١]

أو لَيْتَ إذ ولدتني الأُمُّ خَصَّصَني ... لخدمتي روضةَ المختارِ تحريرُ[١٢]

حتى أقاربَ مَنْ في قُرْب ساحتِكم ... تقرباً فيهِ للآثامِ تكفيرُ

هَلَّا لخدي يا خيرَ الأنامِ على ... ترابِ تربتِكَ الفيحاءِ تعفيرُ

هلَّا لجيبي يا خيرَ العوالمِ مِنْ ... عبيرِ روضتِكَ المِسْكيِّ تعطيرُ[١٣]

يا ليتَ شعْري متى ظَفْري بزورةِ مَنْ ... في بابهِ الرَّحبِ للحاجاتِ تظفيرُ[١٤]

حتَّى أحُطَّ رحالي دونَ حُجرته ... وقد جرى منه للعبراتِ تفجيرُ

---

[٨] فهمت: نطقت، معطير: فعيل صيغت مبالغة من معطر، ومراده أن النبي إذا نطق في نصرتي والشفاعة لي خرج من فيه عطر فيه شفاء ورحمة.

[٩] يا أحكم الصحب: أراد به التوسل إلى النبي بجاه أحكم أصحابه وهو أبو بكر الصديق.

[١٠] قطمير : اسم الكلب الذي تبع أصحاب الكهف إلى كهفهم وجاء ذكره في القرآن {وكلبهم باسط ذراعيه بالوسيط.

[١١] ابن الأريقظ: هو عبد الله بن أريقظ الذي استأجره النبي ﷺ ليدله على طريق المدينة يوم الهجرة وكان ماهراً بالطرق والشعاب، والشمير: هو الرجل المجرب الماضي في الأمور والحوائج.

[١٢] تحرير: وصية، أراد: ليت أمي أوصت أن اخصص منذ طفولتي لخدمة روضة المختار.

[١٣] لجيبي: الجيب فتحة في الثوب أعلى الصدر.

[١٤] بزورة: الزور واحدة الزيارة، تظفير: تفعيل من الظفر وهو الفوز.

أجثُو على ركبَتَيَ فيها وليْ كَرْبٌ ... سألَتْ بها مِنْ مآقيَّ النَّواعيرُ[١٥]

في بُقْعَةٍ وُطِئَتْ يوماً بأخْمَصِهِ ... لها من الخَلقِ بالتقبيلِ تعميرُ[١٦]

وللوجوهِ إذا مسَّتْ مَواطِئَهُ ... من السعادةِ نورٌ فيهِ تنويرُ

كم للخدودِ عليها منذ قدَّسَها ... مسَّاً بحَافِره اليَعْفورُ تَقْفيرُ[١٧]

يا مَنْ تلا مَدْحَهُ الأَحبارُ في الصُّحفِ الـ ... أولى وأعجَزَهُمْ في الحَمْدِ تحبيرُ[١٨]

تلاهُ موسى وعيسى في كتابِهِما ... لولا لِمَنْ قد تَلَاهُم فيه تغييرُ

أنت الحبيبُ الذي في مدحِهِ زُمِرتْ ... مِنْ منذُ مبعثِ داوودَ المزاميرُ

وصارَ ريحاً رَخَاءاً من كرامته ... أيامَ مُلكِ سليمانَ الأعاصيرُ

وعادَ برداً سلاماً للخليلِ بهِ ... نارٌ لها مِنْ أعادي اللهِ تسعيرُ

قد طابَ حَيَّاً وميتاً غيرَ مُنقَطعٍ ... للخَلْقِ في حالتَيْهِ منهُ تدبيرُ

أَقْبِلْ عليَّ بوجهٍ في أَسرَّتِهِ ... للبِشْرِ إذْ طلبُ المعروفِ تنويرُ

وانظُرْ إلى لائذٍ يدعو إليكَ وفي ... أحشائِهِ من عذابِ العشقِ تغريرُ

من زالَ ينفخُ في نارَيْ نوىً وجوىً ... حتَّى تنفَّسَ من أنفاسِهِ كيرُ[١٩]

ما عادَ من عندِكَ العافِيْ وما لَهِدَتْ ... لهُ بوقرِ الجِدَى مِنْ جُودِكَ العيرُ[٢٠]

كَمْ طالَ لي أملٌ فيكم! وقصَّرني ... عن قربكم زَمَنَ الإمكانِ تقصيرُ

فخيرُ كفَّارتي استغفارُكُمْ، فَبِهِ ... لسيئاتِ جميعِ الخلقِ تكفيرُ

وأنتَ مفزَعُ كُلِّ المرسلينَ لَهُمْ ... في الحَشْرِ تحتَ لواءِ الحمدِ تكبير

---

[١٥] النواعير: دولاب ينقل به الماء من أسفل إلى علو وهي كثيرة في حماه في بلاد الشام.

[١٦] أراد أن الأرض التي وطئتها قدم النبي ﷺ عامرة بتقبيل الخلق لها.

[١٧] يعفور : اسم حمار كان للنبي ﷺ، والتعفير: جمع التراب باليدين. ومراده أن يصف تزاحم العشاق في كل أرض وطئها حمار النبي فهم يتبركون بترابها فيجمعونه ويعفرون خدودهم عليها.

[١٨] تحبير: بذل الجهد في صناعة الكتابة والتأليف، أراد أنهم عجزوا عن التأليف في مدح النبي ﷺ كما يليق بمقامه.

[١٩] كير: بيت النار، ومنه كير الحداد،إشارة إلى نار العشق في أحشائه.

[٢٠] العافي: السائل: لهدت: ثقلت واللهيد من الابل: الذي أثقلته الأحمال حتى ضاقت أنفاسه. وقر الجدى: ثقل العطايا، ومعنى البيت: ما عاد من عندك العافي بدون أن تلهد عيره، أي لا يمكن أن يعود السائل من بابك إلا وبعيره ملهود بأحمال عطاياك.

ملحق خاص

قصيدة البردة

رأيت أن من المفيد أن أضع بين يدي القارئ الكريم قصيدة البوصـــيري (البردة) وهي التي جاءت قصـــيدة ابن دنوغونة الداغســـتاني معارضـــةً لها ومحاكاةً معها ومواصـــلةً لمعانيها. وقد كان ابن دنوغونة حريصـــاً كلَّ الحرص أن يقتفي أثر البوصـــيري في معانيه وألفاظه وقوافيه فجاء في ذلك موفقاً غاية التوفيق ملهماً أدقَّ الإلهام.

قصيدة بردة المديح

للإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد البوصيري الصنهاجي

الفصل الأول

أَمِـنْ تـذَكُّـر جـيرانٍ بِـذِي سَـــلَـمِ ... مَزجـتَ دمعـاً جرَى من مُقلـةِ بـدمِ[1]

أَمْ هبَّـتِ الرّيحُ من تلقـاء كَـاظِمَـةٍ ... وأومضَ البرقُ في الظَّلمـاءِ من إضَـــمِ[2]

فمـا لعينيـكَ إنْ قلـتَ اكفُفَـا هَمَتَـا ... ومـا لقلبِـكَ إن قلـتَ اســتفقْ يَهِمِ

أيحســـبُ الصَّـــبُّ أنَّ الحـبَّ مُنكَتِمٌ ... مـا بينَ منسَـــجِمٍ منـه ومُضـــطَرِمِ[3]

لـولا الهوى لم تُرِقْ دمعـاً على طَلَـلٍ ... ولا أرِقـتَ لـذكـرِ البـانِ والـعَـلَـمِ[4]

فكيفَ تنكرُ حُبَّـاً بعـدمَـا شَـــهِـدَتْ ... بـه عليـك عـدولُ الـدَّمعِ والسَّـــقمِ

وأثبـتَ الوجـدُ خَطَّي عبرةٍ وضَـــنىً ... مثـلَ البَهـارِ على خـديـك والعَنَمِ[5]

نعم ســـرى طيفُ من أهوى فـأرَّقني ... والحـبُّ يـعـترضُ الـلـذاتِ بالألمِ

يا لائمـي في الهوى العُـذريّ مَعـذِرَةً ... مـني إليـكَ ولـو أنصـــفـتَ لم تَـلُـمِ

عـدتْـكَ حـالي لا سِـــرّي بمســـتترٍ ... عـن الوشـــاةِ ولا دائي بمنـحَسِـــمِ[6]

مَحَّضـــتَني النُّصـــحَ لكن لســـتُ أسمَعُهُ ... إنَّ المحـبَّ عـن العـذَّالِ في صَـــمَمِ

إني اتهمتُ نصـــيحَ الشـــيبِ في عذلي ... والشـــيـبُ أبعـدُ في نصـــحٍ عن التُّهَمِ

الفصل الثاني

فـإنَّ أمَـارتي بالسُّـــوء مـا اتـعـظـتْ ... من جهلِهـا بنـذيرِ الشَّـــيـبِ والهرَمِ[7]

ولا أعـدَّتْ من الفعـلِ الجميـلِ قِرى ... ضَـــيفٍ أَلَمَّ بِرأســـي غير محتشـــمِ[8]

---

[1] سلم: موضع في المدينة المنورة.

[2] كاظمة: من أسماء المدينة المنورة، إضم: جبل قرب المدينة المنورة.

[3] منسجم: غزير، مضطرم: خفاق.

[4] البان والعلم: من شجر المدينة.

[5] البهار: ورد أصفر، العنم: شجر أحمر يشبه ما يسمى في بلادنا (الزعبوب).

[6] عدتك: أصابتك العدوى مني

[7] أمارتي بالسوء: أراد نفسه.

[8] قرى: ضيافة، أراد بالضيف في رأسه: الشيب، والقرى الملائم لهذا الضيف هو العبادة والطاعة.

لـو كـنـتُ أعـلـمُ أني مـا أوَقِّـرُه ... كتمـتُ سِـرَّاً بـدالي منـه بالكَتَمِ
مـن لي بـردِّ جِمَـاحٍ عـن غـوايـتـهـا ... كـمـا يُـرَدُّ جِمـاحُ الخـيـل باللُّـجُـمِ[9]
فلا ترمْ بالمعـاصـي كسـرَ شـهوتِها ... إنَّ الـطـعـامَ يـقـوي شـهـوةَ الـنَّـهـمِ
والنفسُ كـالطفلِ إنْ تهملْهُ شـبَّ على ... حـبِّ الرَّضـاعِ وإن تفطمْـهُ ينفطمِ
فـاصـرِفْ هواهـا وحـاذِرْ أن تولِّيَـه ... إنَّ الهوى مـا تولَّى يُصْـمِ أو يَصِـمِ[10]
وراعِهـا وهي في الأعمـالِ سـائمـةٌ ... وإن هي اسـتحْلتِ المرعى فلا تُسِـمِ[11]
كـم حَسَّـنَـتْ لـذةً للمرءِ قـاتلـةً ... من حيث لم يدرِ أن السُّـمَّ في الدَّسَـمِ
وأخشَ الدَّسـائسَ من جوعٍ ومن شِـبَعٍ ... فـرُبَّ مخـمصـةٍ شـرٌّ مـن الـتُّـخَـمِ
واسـتفرِغِ الـدَّمعَ من عينٍ قـد امتلأتْ ... مـن المحـارِمِ والـزمْ حِمْـيَـةَ الـنَّـدمِ
وخالفِ النفسَ والشـيطانَ واعصِـهما ... وإن هما مَحَّضَـاكَ النُّصْـحَ فـاتَّهِمِ
ولا تُطِعْ منهمـا خصـمَـاً ولا حَكَمَـاً ... فـأنـتَ تعرفُ كيـدَ الخصـمِ والحكَمِ
أسـتـغـفـرُ الله مـن قـولٍ بـلا عـمـلٍ ... لقـد نسـبـتْ بـه نَسْـلاً لـذي عُقُمِ
أمرتْـكَ الخير لـكـن مـا أئتـمرت بـه ... وما اسـتقمتُ فما قولي لك اسـتَقِمِ؟!
ولا تـزوَّدتُ قـبـلَ المـوتِ نافـلـةً ... ولم أصـلِّ سـوى فرضٍ ولم أصُـمِ

الفصل الثالث

ظلمـتُ سُـنَّـةَ من أحيـا الظلامَ إلى ... أن اشـتـكـتْ قَـدَمَـاهُ الضُّـرُّ من وَرَمِ
وشـدَّ من سَـغَبٍ أحشـاءَه وطوى ... تحـت الحجـارةِ كَشْـحـاً مترف الأدَمِ[12]
وراودتْـهُ الجبـالُ الشُّـمُّ من ذَهَـبٍ ... عـن نـفسِـهِ، فـأراهـا أيَّمـا شَمَـمِ[13]

[9] جماح: هي الخيل الهائجة: أراد بها نفسه التي تنازعه على مقارفة الإثم
[10] ما تولى: إذا تولى، يُصم: من الصمم أو يصِم: من العيب والوصم.
[11] سائمة: من السوم وهو الرعي.
[12] سغب: الجوع، كشحاً: خصراً، مترف الأدم: الأدم هو الجلد والمراد: ناعم الجلد.
[13] شمم: الرفض مع الإباء.

وأَكَّـدتْ زهـده فـيـهـا ضَـــرورتُـه ... إنَّ الضـــرورةَ لا تعـدو على العِصَـــمِ
وكيف تـدعو إلى الـدنيـا ضـــرورةُ من ... لـولاهُ لم تخـرُجِ الـدنـيـا مـن الـعَـدَمِ
محمدٌ سيّدُ الكونين والثقليـــــــــــــــ ... ـــــــن والفريقينِ من عُربٍ ومن عجَمِ
نـبـيُّـنـا الآمـرُ الـنَّـاهـي فـلا أحـدٌ ... أبـرَّ في قـولِ (لا) مـنـهُ ولا (نـعَـمِ)
هو الحبيـب الـذي تُرجى شـفـاعتُـهُ ... لـكـلِّ هـولٍ مـن الأهـوالِ مـقـتـحـمُ
دعـا إلى الله فـالمســتمســكون بـه ... مســتمســكون بحبـلٍ غيرِ مُنفصِـمِ
فـاقَ الـنـبـيـينَ في خَـلْـقٍ وفي خُـلُـقٍ ... ولم يُـدانـوه في عِـلـمٍ ولا كَـرَمِ
وكـلُّـهـم مـن رســولِ الله مـلـتـمـسٌ ... غرفاً من البحرِ أو رَشْـفَـاً من الدِّيَمِ[١٤]
وواقـفـون لـديـهِ عـنـد حَـدِّهـمُ ... من نقطةِ العلمِ أو من شـكلةِ الحكَمِ[١٥]
فـهـو الـذي تمَّ مـعـنـاهُ وصـورتُـه ... ثم اصـطفـاه حبيباً بارىءُ النِّسـمِ[١٦]
مُـنَـزَّهٌ عـن شـريـكٍ في محـاسـنِـهِ ... فجوهرُ الحسـنِ فيـه غيرُ مُنقسـمِ
دعْ مـا ادَّعتـه النصـارى في نَبيِّهمْ ... واحكم بما شـئتَ مدحاً فيه واحتكِمِ
وانسـبْ إلى ذاته ما شـئتَ من شَـرَفٍ ... وانسـبْ إلى قدرِهِ ما شـئتَ من عِظَمِ
فـإن فضـل رسـول الله ليس لـه ... حـدٌّ فـيـعـربَ عـنـه ناطِـقٌ بـفـمِ
لـو ناسـبـتْ قـدره آياتُـه عـظـمـاً ... أحيـا اسمـه حين يـدعى دارسَ الرَّمَمِ[١٧]
لم يمـتـحـنَّـا بمـا تـعـيـا الـعـقـولُ بـه ... حرصـاً علينـا فلم نرتـبْ ولم نهمِ[١٨]
أعيـا الورى فـهـمُ معنـاه فـليس يرى ... لـلـقـربِ والـبـعـدِ فـيـه غـيرُ مـنـفـحِـمِ
كـالشـمسِ تظهرُ للعينينِ من بُعُـدٍ ... صـغيرةً وتُكِـلُّ الـطرفَ مـنْ أَمَـمِ[١٩]

[١٤] الديم: السحاب والرشف من الإرتشاف وهو الشرب بالفم
[١٥] شكلة الحكم: الشكلة: الإعراب.
[١٦] النسم: جمع نسمة وهي الروح.
[١٧] دراس الرمم: الرمم الدارسة الهالكة والرمم جمع رمة وهي جثة الميت بعد تآكلها.
[١٨] لم نهمِ: من الهيام وهو الضياع.
[١٩] أمم: القرب.

وكيف يُدْرِكُ في الدنيا حقيقَتهُ ... قومٌ نيامٌ تسلُّوا عنه بالحُلُمِ
فمبلغُ العلمِ فيه أنَّهُ بشرٌ ... وأنَّهُ خيرُ خلقِ الله كلِّهمِ
وكلُّ آيٍ أتى الرُّسْلُ الكرامُ بها ... فإنَّما اتَّصلتْ من نورِهِ بهمِ
فإنَّهُ شَمْسُ فضلٍ هم كواكبُها ... يُظهِرْنَ أنوارها للنَّاسِ في الظُلَمِ
أكرمْ بخَلْقِ نبي زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مشتملٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ[٢٠]
كالبدرِ في شرفٍ، والزَّهرِ في ترفٍ ... والبحرِ في كرمٍ، والدَّهرِ في هِمَمِ
كأنه وهو فردٌ من جلالتهِ ... في عسكرٍ حين تلقاهُ وفي حَشَمِ
كأنما اللؤلؤُ المكنونَ في صَدَفٍ ... من معدني منطقٍ منه ومبتسمِ
لا طيبَ يعدلُ تراباً ضمَّ أعظُمَهُ ... طوبى لمنتشقٍ منه ومُلْتثمِ

الفصل الرابع

أبانَ مولِدُهُ عن طيبِ عُنْصُرِهِ ... ياطيبَ مبتدأ منه ومختَتَمِ
يومَ تفرَّسَ فيه الفرسُ أنهمُ ... قد أُنذِروا بحلولِ البؤسِ والنِّقَمِ
وباتَ إيوانُ كسرى وهو منصَدِعٌ ... كشملِ أصحابِ كسرَى غير ملتئمِ
والنارُ خامدةُ الأنفاسِ من أسَفٍ ... عليه والنهرُ سَاهي العينِ من سَدَمِ[٢١]
وساءَ ساوةَ إن غاضتْ بحيرتُها ... وَرُدَّ واردُها بالغيظِ حينَ ظمي[٢٢]
كأنَّ بالنارِ ما بالماء من بللٍ ... حزناً، وبالماءِ ما بالنار من ضرَمِ[٢٣]
والجنُّ تهتِفُ والأنوارُ ساطعةٌ ... والحقُّ يَظهرُ من معنى ومِنْ كَلِمِ
عَمُوا وصمُّوا فإعلانُ البشائر لم ... تُسْمَعْ وبارِقَةُ الإنذارِ لم تُشَمِ[٢٤]

[٢٠] متسم: متصف من الوسم وهو العلامة
[٢١] سدم: حزن.
[٢٢] ساوة: إشارة إلى بحيرة ساوة، غاضت: جفت.
[٢٣] ضرم: اشتعال.
[٢٤] لم تشم: لم تلاحظ

من بعدِ ما أخبرَ الأقوامَ كاهنُهمُ ... بأنَّ دينَهم المِعْوَجَّ لمْ يَقُمِ
وبعدما عاينوا في الأفقِ من شُهُبٍ ... منقضَّةً وفقَ ما في الأرضِ من صَنَمِ
حتى غدا عن طريقِ الوحيِ مُنهَزِمٌ ... من الشياطين يقفو إثْرَ مُنهَزِمِ
كأنَّهم هَرَباً أبطالُ أبرهةٍ ... أو عسكرٌ بالحصى من راحتَيهِ رُمي[٢٥]
نبذاً به بعدَ تسبيحٍ ببطنهما ... نبذَ المسبِّحِ في أحشاءِ مُلْتقِمِ[٢٦]

الفصل الخامس

جاءتْ لدعوتهِ الأشجارُ ساجدةً ... تمشي إليه على ساقٍ بلا قَدَمِ
كأنَّما سطَّرتْ سَطْراً لما كتبتْ ... فروعُها من بديعِ الخطِّ باللَّقَمِ[٢٧]
مثلَ الغمامةِ أنَّى سارَ سائرةً ... تقيهِ حرَّ وطيسٍ للهجيرِ حَمي[٢٨]
أقسمتُ بالقمرِ المنشَقِّ أنَّ لَهُ ... من قلبِهِ نسبةً مبرورةَ القَسَمِ
وما حوى الغارُ من خيرٍ ومن كَرَمٍ ... وكلِّ طرفٍ من الكفار عنه عَمي
فالصدقُ في الغارِ والصديقُ لم يَرِما ... وهم يقولونَ ما بالغار من أرِمِ[٢٩]
ظنَّوا الحمامَ وظنُّوا العنكبوتَ ... على خير البريَّةِ لم تَنسُجْ ولم تحُمِ
وقايةُ اللهِ أغنتْ عن مضاعفَةٍ ... من الدروعِ وعن عالٍ من الأُطمِ
ما سامني الدهرُ ضيماً واستجرتُ به ... إلا ونلتُ جِواراً منه لم يُضَمِ[٣٠]
ولا التمستُ غنى الدَّارينِ من يَدِهِ ... إلا استلمتُ النَّدى من خيرِ مُسْتَلَمِ
لا تُنكِرِ الوحيَ من رؤياه إنَّ له ... قلباً إذا نامتِ العينانِ لم ينمِ
وذاكَ حينَ بلوغٍ من نُبوَّتهِ ... فليسَ ينكرُ فيه حالُ محتلمِ

---

[٢٥] أبطال أبرهة: أراد جيش أبرهة الذي جاء بقصد هدم البيت الحرام،وأراد جيش حنين الذي ألقى عليه النبي ﷺ الحصى: وما رميت إذ رميت لكن الله رمى.

[٢٦] المسبح: أراد نبي الله يونس عليه السلام وهو يسبح في أحشاء الحوت.

[٢٧] اللقم: وسط الطريق أراد أن الأشجار سجدت بين يديه حتى التصقت بالأرض كأنها خطوط مرسومة.

[٢٨] الوطيس: التنور المشتعل، الهجير: حر الظهيرة.

[٢٩] لم يرما: أصلها لم يريما أي لم يبرحا مكانهما من الروم، أرم: أثر.

[٣٠] سامني: ما أرادني بضر.

تبارَكَ الله ما وحيٌ بمكتسبٍ ... ولا نبيٌّ على غيبٍ بمتَّهمِ
كم أبرأتْ وصَبَاً باللَّمسِ راحتُهُ ... وأطلقتْ أَرِباً من رِبقةِ اللَّمَمِ[31]
وأحيَتِ السَّنَةَ الشهباءَ دعوتُهُ ... حتّى حَكَتْ غُرَّةً في الأعصرِ الدُّهمِ[32]
بعارضٍ جادَ أو خِلْتَ البِطاحَ بها ... سيبٌ من اليمِّ أو سيلٌ من العَرِمِ[33]

الفصل السادس

دعني ووصفي آياتٍ له ظهرتْ ... ظهورَ نارِ القرى ليلاً على علمِ
فالدرُّ يزدادُ حُسناً وهو منتظمٌ ... وليسَ ينقصُ قدراً غير منتظمِ
فما تَطاوَلُ آمالُ المِدِيحِ إلى ... ما فيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلاَقِ والشِّيَمِ[34]
آياتُ حقٍّ من الرحمنِ محدثةٌ ... قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصوفِ بالقِدَمِ
لم تقترنْ بزمانٍ وهي تخبرنا ... عَن المعادِ وعَنْ عادٍ وعَنْ إرَمِ
دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كلَّ مُعْجِزَة ... مِنَ النَّبِيِّينَ إذْ جاءتْ ولَمْ تَدُمِ
مُحَكَّماتٌ فما تبقينَ من شبهٍ ... لذي شقاقٍ وما تبغينَ من حكمِ
ما حُورِبَتْ قَطُّ إلَّا عادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى الأعادي إليها مُلقِيَ السَّلَمِ
رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْوى مُعارِضِها ... ردَّ الغيور يدَ الجاني عن الحَرِمِ
لها معانٍ كموجِ البحر في مَدَدٍ ... وفوقَ جوهره في الحُسنِ والقيَمِ
فما تُعَدُّ وَلا تُحْصَى عَجَائبُها ... ولا تُسامُ عَلَى الإكثارِ بالسَّأَمِ[35]
قرَّتْ بها عينُ قاريها فقلت له: ... لقد ظفِرتَ بِحَبْلِ الله فاعْتَصِمِ

---

[31] وصباً: مريضاً، أرباً: معتوهاً، ربقة: قيد، اللمم: الحزن.

[32] حكت غرة: غرة كل شيء أحسنه، والدُّهم: السود، لكثرة الخصب والخير، أراد بها دعوة النبيﷺ غرة أعوام الخصب.

[33] بعارض جاد: بسحاب عارض جاد بالغيث تحسب الصحراء من شدة غزارته سيباً أي قناة سائبة من البحر أو سيلاً من العرم وهو السيل الذي سلط على سد سبأ فدمره (أو) في البيت بمعنى: إلى أن.

[34] ما: استفهامية أراد لماذا تطاول آمالي إلى مدح مقامه، وهي دونه قاصرة كليلة.

[35] لا تُسامُ: لا توصف، السأم: الملل.

إنْ تَتْلُها خِيفَة مِنْ حَرّ نارِ لَظَى أطْفَأْتَ نارَ لَظَى مِنْ وِرْدِها الشَّبِمِ[٣٦]
كأنها الحوضُ تبيضُّ الوجوه به مِنَ العُصاةِ وقد جاءُوهُ كَالحُمَمِ
وَكالصِّراطِ وكالمِيزانِ مَعدِلَةً فالقِسْطُ مِنْ غَيرِها في الناس لَمْ يَقُمِ
لا تعْجَبَنْ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُها تَجاهُلاً وهْوَ عَينُ الحاذِقِ الفَهِمِ
قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رمدٍ ويُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ الماء منْ سَقَم

الفصل السابع

ياخيرَ من يَمَّمَ العافونَ ساحتَهُ سَعْياً وفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ[٣٧]
وَمَنْ هُو الآيَةُ الكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ
سريتَ من حرمٍ ليلاً إلى حرمٍ كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إلَى أنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً من قابِ قوسينِ لم تدركْ ولم ترمِ
وقدَّمتكَ جميعُ الأنبياءِ بها والرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَم
وأنتَ تخترق السبعَ الطِّباقَ بهمْ في مَوْكِبٍ كنْتَ فيهِ صاحِبَ العَلَمِ
حتى إذا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لمسْتَبِقٍ من الدُّنوّ ولا مرقيَّاً لمستنمِ[٣٨]
خفضتَ كلَّ مقامٍ بالإضافة إذ نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المفْرَدِ العَلَم
كيما تفوزَ بوصلٍ أيّ مستترٍ عن العيونِ وسرٍّ أيّ مُكتتمِ[٣٩]
فَحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غيرَ مُشْتَرَكٍ وجُزْتَ كلَّ مَقامٍ غيرَ مُزْدَحَمِ
وَجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ وعزَّ إدْراكُ ما أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ
بُشْرَى لَنا مَعْشَرَ الإسلامِ إنَّ لنا من العنايةِ رُكناً غيرَ منهدمِ

[٣٦] وردها الشبم: مائها البارد

[٣٧] العافون: السائلون، متون الأينق الرسم. ظهور النوق السريعة.

[٣٨] شأواً المستبق: منزلة لأحد يسابقك، مستنم: متسلق.

[٣٩] أي مستتر: بالغ الاستتار. وأي مكتتم: بالغ الكتمان.

الفصل الثامن

راعتْ قلوبَ العدا أنباءُ بعثتهِ ... كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غَفْلاً مِنَ الغَنَمِ[٤٠]

مازالَ يلقاهمُ في كلِّ مُعترِكٍ ... حتى حَكَوْا بالقَنا لَحْماً على وضَمِ[٤١]

ودُّوا الفرار فكادوا يغبطونَ بهِ ... أشلاءَ شالتْ مع العقبانِ والرَّخمِ[٤٢]

تمضي الليالي ولا يدرونَ عدتها ... ما لَمْ تَكُنْ مِنْ ليالِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ ... بِكلِّ قَرْمٍ إلَى لحْمِ العِدا قَرِمِ[٤٣]

يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فوقَ سابِحَةٍ ... يرمي بموجٍ من الأبطالِ ملتطمِ[٤٤]

من كلِّ منتدبٍ لله محتسبٍ ... يَسْطو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصطَلِمِ[٤٥]

حتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإسلام وهْيَ بِهِمْ ... مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِها مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

مكفولةً أبداً منهم بخيرِ أبٍ ... وخير بعلٍ فلم تيتم ولم تئمِ[٤٦]

هُم الجِبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ ... ماذا رأى مِنْهُمُ في كلِّ مُصطَدَم

وسل حُنيناً، وسل بدراً، وسلْ أُحُداً ... فُصُولَ حَتْفٍ لهُمْ أدْهَى مِنَ الوَخَمِ[٤٧]

المصدري البيضَ حُمراً بعدَ ما وردت ... من العدا كلَّ مُسْوَدٍّ من اللممِ[٤٨]

وَالكاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ ... أقلامهمْ حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ[٤٩]

شاكي السِّلاحِ لهم سيما تميزهمْ ... والوردُ يمتازُ بالسيما من السلمِ[٥٠]

---

[٤٠] غفلاً من الغنم: الأغنام الغافلة

[٤١] حكوا بالقنا لحماً على وضم: أصبحت لحومهم على أطراف الرماح (القنا) كأنها لحم يشوى على وضم وهو السيخ الذي يشوى عليه اللحم.

[٤٢] شالت: رُفعت، العقبان: جمع عُقاب، وهو طير جارح، والرخم: جمع رخمة وهو نوع من الطير مشهور بالمباغتة.

[٤٣] قَرِم: هو البعير يخصص للنزو فلا يكلف بشيء، قَرِم: شديد الشهوة للَّحم.

[٤٤] بحر خميس: جيشاً كالبحر، وسمي الجيش خميساً لأنه تخمس فيه الغنائم، سابحة: فرس أصيلة.

[٤٥] يسطو بمستأصل للكفر مصطلم: أراد أنه يسطو على الأعداء، بالسيف الذي يستأصل الكفر وعبّر عن بريق السيف بالاصطلام وهو الاشتعال

[٤٦] لم ييتم: من اليتم، ولم تئم من الأيم وهو فقد المرأة بعلها.

[٤٧] فصول حتف: دروس موت، الوخم: الموت.

[٤٨] المصدري البيض: السيوف البيض، أراد أنهم يدخلونها في الأعادي بيضاً ويخرجونها منهم حمراً، اللمم: شعر الرأس الوافر إذا جاوز الأذنين.

[٤٩] سمر الخط: أراد بها الرماح، منعجم: غير معروف، أراد أنهم بعد أن تصيبهم رماح المسلمين لاتعرف أشكالهم.

[٥٠] شاكي السلاح: يظهرون سلاحهم، والشكوى بالشيء إظهاره، السيما: العلامة، السلم: نوع من العيدان لاثمر فيه ولا زهر له.

تُهدى إليكَ رياحُ النَّصرِ نشرهمُ ... فتحسبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كلَّ كمي[٥١]
كأنهمْ في ظهورِ الخيلِ نبتُ رُباً ... مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّةِ الحُزُم[٥٢]
طارت قلوبُ العدا من بأسهمِ فرقاً ... فما تُفَرِّقُ بين البهم والبُهمِ[٥٣]
ومن تكنْ برسول الله نصرتُه ... إن تلقهُ الأُسدُ في آجامها تجمِ[٥٤]
ولن ترى من وليٍّ غير منتصرِ ... بهِ ولا مِنْ عَدُوّ غَيْرَ مُنْقصمِ
أحلَّ أمَّتَهُ في حرزِ ملَّتهِ ... كاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأشبال في أجَمِ[٥٥]
كمْ جدَّلَتْ كلماتُ اللهِ من جدلٍ ... فيهِ وكم خَصَمَ البُرْهانُ مِنْ خَصِمِ[٥٦]
كفاكَ بالعِلْمِ في الأُمِيِّ مُعْجِزَةً ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

الفصل التاسع

خَدَمْتُهُ بِمَديحٍ أسْتَقِيلُ بِهِ ... ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعْرِ والخِدَمِ[٥٧]
إذ قلداني ما تُخشى عواقبهُ ... كَأنَّني بهما هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ[٥٨]
أطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا في الحَالَتَيْنِ ومَا ... حصلتُ إلاَّ على الآثامِ والندمِ
فيا خسارةَ نفسٍ في تجارتها ... لم تشترِ الدِّينَ بالدنيا ولم تَسُمِ
وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً منهُ بِعاجِلِهِ ... يَبِنْ لهُ الغَبْنُ في بَيْعٍ وَفي سَلَمِ[٥٩]
إنْ آتِ ذَنْباً فما عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النبيِّ وَلا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ[٦٠]

---

[٥١] الأكمام: الطلع في الشجر، كمي: مفرد أكمام.

[٥٢] الحزُم: الربط.

[٥٣] البَهم والبُهم: البَهم الأولى: جمع بهمة وهي الشاة، والبُهُم هي الليالي السود.

[٥٤] آجامها: جمع أجمة وهي مسكن الأسود، وتجم: من الوجوم وهوالحيرة مع الفزع.

[٥٥] الأجم جمع أجمة أيضاً (صيغة أخرى في الجمع).

[٥٦] جدَّلت: قصمت وأفحمت، وجَدل: رجل مجادل مكابر، خَصِم: مخاصم مكابر.

[٥٧] أستقبل: أطلب به الإقالة والعفو.

[٥٨] هدي: ما يهدي إلى قفراء الحرم من الأغنام والبقر والإبل.

[٥٩] الغبن: الخسارة، السلم: نوع من البيع لأجل أقره الشارع.

[٦٠] منصرم: منقطع.

فـإنَّ لي ذمـةً مـنـهُ بـتسـمـيـتي ... مُحـمَّـداً وَهُـوَ الخَـلْـيـقِ بالـذِّمَـمِ
إن لم يكن في معـادي آخـذاً بيـدي ... فضـلاً وإلا فـقـلْ يا زَلَّـةَ الـقـدمِ
حـاشـاهُ أنْ يحرمَ الرَّاجي مكـارمـهُ ... أو يـرجـعَ الجـارُ مـنـهُ غـيرَ محـترمِ
ومـنـذُ ألـزمـتُ أفـكـاري مـدائـحـهُ ... وَجَـدْتُـهُ لِخَـلاصِـي خـيرَ مُـلْـتَـزِمِ
وَلَـنْ يَـفُـوتَ الـغِنى مِـنْـهُ يـداً تَـرِبَـتْ ... إنَّ الحَيـا يُـنْبِـتُ الأزهـارَ في الأكَمِ[٦١]
وَلَمْ أُرِدْ زَهْـرَةَ الـدُّنْـيـا الـتي اقـتـطَـفَـتْ ... يـدا زُهـيرٍ بمـا أثـنى عـلـى هـرمِ[٦٢]

الفصل العاشر

يا أكـرَمَ الخـلـق مـا لي مَـنْ أَلُـوذُ بـه ... سِـوَاكَ عنـدَ حلولِ الحـادِثِ العَـمِمِ
وَلَنْ يَضِـيقَ رَسـولَ الله جـاهُـكَ بي ... إذا الـكـريمُ تَحَـلَّـى باسْـمِ مُـنْـتَـقِـمِ
فـإنَّ مـن جُـودِكَ الـدنيـا وَضَـرَّتَهـا ... ومـن عـلـومـكَ عـلمَ الـلـوحِ والـقـلـمِ[٦٣]
يا نَـفْسُ لا تَـقْـنَطِي مِنْ زَلَّـةٍ عَظُمَـتْ ... إنَّ الـكَـبـائـرَ في الـغُـفـرانِ كـالـلَّـمَـمِ[٦٤]
لـعـلَّ رحمـةَ ربِّي حـين يـقسـمـهـا ... تأتي على حسـب العصـيانِ في القسـمِ
يا ربِّ واجعـل رجـائي غير منعكسٍ ... لَـدَيْـكَ وَاجعَـلْ حِسـابِي غَيرَ مُنْخَزِمِ[٦٥]
والـطـفْ بـعـبـدكَ في الـداريـنِ إن لـهُ ... صـبراً مـتى تـدعـهُ الأهـوالُ يـنـهـزمِ
وائـذنْ لِسُـحْـبِ صـلاةٍ منـكَ دائمـةٍ ... عـلـى الـنـبيِّ بمـنـهـلٍّ ومـنسـجـمِ
مـا رَنَّحَـتْ عَـذَباتِ البـانِ ريحُ صَـبـاً ... وأطْرَبَ العِيسَ حـادي العِيسِ بِالنَّغَمِ[٦٦]
ثم الرِّضـا عـن أبي بكـرٍ وعـن عـمـرِ ... وعـن عـلـيٍّ وعـن عـثـمـانَ ذي الـكـرَمِ

---

[٦١] تربت: لصقت بالتراب، الحيا: المطر.

[٦٢] هرم: هو هرم بن سنان، أحد أجواد العرب في الجاهلية، وهو الذي أصلح بين عبس وذبيان، وفدى قتلاهما.

[٦٣] ضرتها: أراد الآخرة أي قرينتها، ولا بد من التحفظ في هذا البيت.

[٦٤] اللمم: صغائر الذنوب.

[٦٥] منخرم: مثقوب.

[٦٦] رنحت: هزَّت، عذبات البان: أغصان شجر البان وهو من شجر المدينة، ريح صبا: ريح تهب من الشرق باتجاه الحجاز كان العرب يفرحون بها ويقال إنها تشتاق إلى البيت الحرام، حادي العيس: المنشد ينشد في قوافل المسافرين، والعيس: الإبل

والآلِ والصَّـــحـبِ ثمَّ التَّـابعين فَـهُـمْ أهـلُ التُّـقـى والـنَّـقـى والحِـلْـمِ والـكَـرَمِ
[يا ربِّ بالمصـــطفى بلِّغْ مقـاصـــدنا واغفر لنـا مـا مضـــى يا واســـعَ الكَرَمِ
واغـفـرْ إلهـي لـكـلِّ المســـلـمين بمـا يتلوه في المســـجِدِ الأقصـــى وفي الحرَمِ
بجـاهِ مـن بـيـتُـه في طـيـبـةٍ حَـرَمٌ واسمُـه قَسَـــمٌ مـن أعـظـمِ الـقَسَـــمِ
وهـذه بـردةُ المـختـارِ قـد خُـتِـمـتْ والحـمـدُ للهِ في بـدءٍ وفي خَـتـمِ
أبيـاتُـهـا قـد أتـتْ ســتينَ مَع مـائـةٍ فَـرّج بهـا كَـرْبَـنـا يا واســعَ الكـرَمِ][٦٧]

[٦٧] ما بين قوسين من صنع بعض المتأخرين، وقد نسبوه إلى البوصيري ولم نجده في ديوانه وهو أضعف من أسلوب البوصيري، ثم إنه يتعارض مع نفسه، إذ يقول: أبياتها قد أتت ستين مع مائة، وهي كذلك لولا هذه الزيادة!

الفهرس

مدخل ١

هذه المخطوطة ٤

قراءة في تاريخ الكفاح الإسلامي في داغستان..... ١٩

القضية الشيشانية ٢٧

الأزهار الرويَّة في المدائح النبوية..... ٢٨

الأشواق والترياق ٢٨

الأشواق والمزامير ٢٨

قصيدة البردة (ملحق خاص) ٢٨

أشواق داغستان

دراسة في رائعة الأدب العربي التي نظمها الشاعر الداغستاني المجيد نجم الدين بن دنوغونة الحزي الأواري مع دراسة لطبيعة الكفاح الإسلامي في الشيشان.

لا نبالغ إن وصفنا شعر ابن دنوغونة بأنه إعجاز المديح النبوي، فمع أن القصيدة من نظم شاعر داغستاني، عاش في داغستان في أواخر عهد القياصرة، وكانت اللغة الداغستانية حديثه وخطابه وكتابه، غير أنه نظم قصيدته هذه بالعربية، فكان مجلياً في حلبتها، ولو أنني كتمت اسم الشاعر عنك، وقرأت عليك طرفاً منها لحسبتها من شعر النابغة الذبياني أو امرئ القيس، أو نظيرهم من فحول شعراء الجاهلية، وذلك لكثرة تمكن الشاعر من العربية، وتوفر غريب ألفاظها وعزيزها بين يديه.

مركز الدراسات
لبحوث التنوير والحضارة